الإعصار والمئذنة

رواية إسلامية معاصرة

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الاهداء
الفصل ١
الفصل ٢
الفصل ٣
الفصل ٤
الفصل ٥
الفصل ٦
الفصل ٧
الفصل ٨
الفصل ٩
الفصل ١٠
الفصل ١١
الفصل ١٢
الفصل ١٣
الفصل ١٤
الفصل ١٥
الفصل ١٦
الفصل ١٧
الفصل ١٨
الفصل ١٩
الفصل ٢٠
الفصل ٢١
الفصل ٢٢
الفصل ٢٣
الفصل ٢٤
الفصل ٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

بعد مرور ربع قرن على ثورة الموصل

وفاء لمدينتي التي احببتها الى درجة العشق

عماد الدين خليل

-١-

كان يرى في عينيها السوداوين جنته الارضية .. هنا يموت الانسان من العشق الجميل، هنا يمكن ان يفجر الانسان ويغدو شيطانا ، ويمكن ان يطير الى السماء السابعة فيتعلم كيف يخاطب الملائكة ..

وكلما جلس اليها يستمع الى همسها الخجول ما كان هو يحكي لها شيئا ، ما كان يقول اية كلمة ، لان لسانه ، وقد ارتاح الى الصمت ، ترك في الاغوار الف كلمة لا تحتاج الى شفاه ..

ما الذي كان يقوله وهو ينظر الى عينيها محدقا حينا ، مطرقا حينا اخر ؟ لا احد يعرف .. ابدا .. فالناس يتعاملون مع الاخرين من الخارج ، ويفهمونهم من الخارج .. وينشئون معهم العلائق والصلات من الخارج أيضاً .. اما ما يحدث في الداخل ، حيث يتشكل الانسان فلا تمتد اليه عين .. من منا حاول ان يجتاز الجدار المنظور الى هناك ، لكي يعاين عملية التشكل تلك؟

الذين قدروا على هذا الاجتياز الصعب استطاعوا حقا ان يفهموا الاخرين ، وان يقيموا معهم صلات عميقة وحقيقية ، أن يحكوا عنهم بالصدق المرتجى ، ولكن – مرة اخرى – من منا قدر على الوصول ؟

تلك هي مأساتنا مع الاخرين ، ما يسمونه بالحياة الاجتماعية ، وقد زادتها تعقيدات العصر الحديث ، فأقامت بين الناس خطوطا متعاقبة من الاسلاك الشائكة ، يموت من يحاول اختراقها للوصول الى الاخرين.

ويقولون : ان الانسان حيوان اجتماعي ، بالطبع .. نعم ، إذا كان ذلك يعني غريزة الانسان التي تسوقه الى الاجتماع بالاخرين والتعاطف معهم ،اما التوغل في الاعماق ، فلن يكون سهلا لكل من يريد ، انه هبة الذي تمرنوا طويلا على الغوص ، وتعرضوا كثيرا للموت في الاعماق ، هؤلاء هم الذي يستطيعون ان يقصوا علينا تجارب الاخرين .. ما يحدث هناك فعلا ، لا ما يتخيلونه هم ..

ما الذي كان يقوله عاصم الدباغ وهو يذوب في عيني سلمى دون ان تنبس شفتاه بشيء؟

ماذا كان يدور هناك في ساحة التشكل والصيرورة ؟ .. ماذا ؟

❀❀❀❀❀❀

-٢-

كان الوقت مساء ، قبل دقائق فحسب هبطت تلك اللحظات التي لا تعرف في مدينة الموصل حلا وسطا ، فهي اما ان تقطر كآبة واما ان ترق وترق حتى يخيل للمرء انه يتلقى نفحة من نسيم الجنة !!

ومنذ اسابيع لم يعد احد يعرف طعم المساء السعيد ، لقد مالت الكفة بالاتجاه الاخر ، فما هي الا الكآبة التي تتكاثف وتثقل حتى تغدو رمادا ودخانا.

واذ كان عاصم يتجاوز بالعشق الحلال ثقل الزمن وبؤسه ، كانت سلمى اشد حساسية ازاء مايجري في المدينة ، ان الهاجس الذي يدق في قلبها ، وتتصادى اجراسه الحزينة عند المساء ، عبر هذه اللحظات بالذات ، لا يمكن لصوت عاصم ان يغطي عليه ، ان يمحوه.

واذ شعر ، ربما لاول مرة ، ان الجسور قد تقطعت بينه وبين خطيبته ، وانه يحكي فلا تسمع ولا تجيب ، آثر ان يعتذر ويغادرالدار ولكنه تريث قليلا ..

- لابد ان أُسلم على أبيك.

رفعت عينيها اليه ، كان ينظر اليها بعتاب وهو يتراجع ثانية لكي يجلس على طرف الايوان .. اميل الى الطول ، ذو بشرة بيضاء مشربة بقليل من السمرة ، شعره الكستنائي الفاقع ينسرح على جبينه بعض الشيء ، كث لكنه مصفوف بعناية ، والانف يعاني من شيء من عدم التناسق مع عينين عسليتين مترعتين بالسكينة ، وثمة شارب رقيق يعرف صاحبه كيف يجعله دائما مشذبا مرسوما.

وكان الرجل يعنى بهندامه فيجاوز حد المعقول ، ومن اجل مزيد من التألق الذي يستهويه كان يؤثر في بعض الاحيان ان يطوي منديلا ملونا فيضعه في جيب سترته العلوي ، لكي يتناظر مع رباطه الانيق ، اما ياقة القميص المنشاة البيضاء فما انحرفت زواياها يوما عن اماكنها ، ولا عرفت بقعة من عرق أو ذرة من غبار ، وفضلا عن هذا كان يلبس - احيانا - نظارات شمسية داكنة تمنحه بهاء اكثر ..

ولم يكن يعوزه الذكاء ، ولا سرعة البديهة ، ولا الخبرة الاجتماعية ، وكان يعرف كيف يغازل خطيبته حيثما خلا لهما المكان ، ولكن ما كان يؤذي سلمى انه كان احيانا مكتفيا بميزاته هذه ، متحصنا بها عما يمكن ان يستهوي معظم الشبان في سني المصير .. اتخاذ موقف واضح ازاء الصراعات المتفجرة يوما بعد يوم ، مصعدة ابدا باتجاه اللحظة التي لن تغفر ابدا لاحد يختار ان يقف على الرصيف متفرّجا أو مؤثرا السلامة ..

- سلمى ، ها قد عدت الى اكتئابك ، انك تعذبينني لغير ما سبب !

افترت شفتاها عن ابتسامة عابرة ، حاولت رغما عنها ان تبعد خطوط الحزن الهاديء المرتسم على وجهها الجميل ..

عيناها سوداوان ذواتا بريق .. انفها وفمها مرسومان بمهارة فائقة .. وجهها ممتليء بعض الشيء .. لكن ما يوازن هذا الامتلاء .. ما يخفف منه ، هي تلك الشفافية التي تتدفق من عينيها ، فتغمر وجهها بما يكاد يجعله قصيدة تقطر حزنا !

مربوعة القامة في غير ما سمنة .. وها هنا أيضاً يتدخل معمار الخلق الجميل ، فيمد في رقبتها بعض الشيء ، ويوازن القامة المربوعة بعمود من عاج بديع والشعر يتناثر على الجبهة بغير ما نظام ، ثم ما يلبث ان ينساب لكي ينسدل على الاكتاف كالشلال.

– لشد ما اتمنى ان نبعد عن العالم ، ان اطير بك الى نهايات الدنيا القصية ، لكي اعيدك ثانية الي ، واستمتع بحضورك معي ...

قالت ، وهي تدلف الى الصالة الداخلية : لحظة واحدة سأنادي على أبي ..

– ولكنك انت التي تريد !

كانت غرفة الاستقبال المستطيلة التي اعتاد الجلوس الى خطيبته فيها تطل على الشارع عبر نافذة تمتد على مدى جدار مقوس يمثل تقليدا معماريا اكثر حداثة للعديد من دور المدينة ، يقابلها باتجاه الداخل باب ذو زجاج مشجر يفضي الى الصالة ، لكنه يحجب العين عما يجري في المكانين ، وعلى مدى الجدارين الطويلين يمتد ديوانان محشوان تقطعهما على مسافات محددة مساحات مسطحة من خشب الصاج ، والى اعلى امتدت رفوف مكتبة معلقة صفت فيها خطوط من الكتب ، لم تكد تملا من فراغها الا قليلا ..

المصباح يتدلى من السقف بغطاء من الخزف الابيض ، كان يتارجح ذات اليمين وذات الشمال بفعل تيارات الحمل التي تتصاعد من المدفأة النفطية الجاثمة في وسط الغرفة ..

نهض عاصم من مكانه واقترب من المدفأة لكي يتزود بشيء من الدفء ثم ما لبث ان اشعل لفافة تبغ وتراجع ثانية لكي يستقر حيث كان قبل لحظات ، كان الشتاء قد ولى ، شتاء الموصل ذاك ببرده الذي ينخر العظام ، وامطاره التي إذا ما بدأت غزوها فانها لا تتوقف قبل انقضاء ايام وليال .. ومع البرد والمطر ، كان يحاصر الناس زمهرير الخوف ، والترقب والقلق بانتظار يوم قد لا يكون دافئا على اية حال.

وها هو ذا الربيع قد اطل تخترقه بين الحين والحين دوامات من البرد الشديد يرغم الناس على التشبث بتقاليدهم الشتوية ريثما يتعزز الدفء وتهدأ الرياح الجليدية التي تصفع المدينة في عصاريها قادمة من الشمال الغربي ، مغسولة بالثلج والبرد.

نهض عاصم ثانية ، كان القلق هذه المرة يهيمن على ملامح وجهه ممتزجا بحزن غير قليل ، ازاح ستار النافذة المطلة على الشارع ووقف هناك ..

كان البيت يتنصب بحلانه الاسمر ، وجدرانه المبنية بالجبس والحجر ، على شارع " الغزلاني " الرئيسي الذي يخترق البلد من اقصى الجنوب الى القصى الشمال ، على بعد عدة مئات من الامتار باتجاه الجنوب يقوم المعسكر حيث يستقر لواء المشاة الخامس ، الذي يتزعمه العقيد عبد الوهاب الشواف ، وشمالا يمرق الشارع كالسهم صوب أقصى نقطة في المدينة حيث تقوم المستشفى ، تحيط بها مجموعات متفرقة من الدور ، وهو في رحلته هذه يجتاز عدة دورات كبيرة لتقاطع الطرق ، دورة العمري القريبة من دار عبد الرحمن والد سلمى ، دورة الباب الجديد حيث ينبثق شارعان رئيسيان ينساب احدهما (الصديق) غربا باتجاه محطة القطار ، والاخر (ذو النورين) شرقا باتجاه قلب المدينة ، باب لكش وباب الطوب والجسر القديم ، ويظل شارع الغزلاني يصعد باسم الفاروق هذه المرة لكي مما يلبث ان يجتاز دوره الساعة ، حيث ينتصب البرج الذي كانت قد اقامته بعثة فرنسية في منتصف القرن الماضي في باحة كنيسة الاباء الدومنيكان ، هنالك حيث يتعامد مع الشارع ، شارع كبير اخر يخترق المدينة عرضيا هذه المرة ، بين الشرق والغرب ، شارع نينوى ، مبتدئا بالجسر القديم، منتهيا بمنطقة راس الجادة التي كانت في العهد الملكي منطلقا ابديا للتظاهرات التي كانت تهز المدينة كلما ديس على عواطف الناس وقيمهم أو هضمت حقوقهم ، ولا تزال شاخصة فيها الحفرة الغائرة التي احدثتها قنبلتان كانت طائرة انكليزية قد القتهما على حشد من اهالي البلد ، كانوا يتجمعون في مقهى مطل على الساحة الكبيرة ، تأديبا لمدينة كانت تعلن ولاءها الصريح للالمان ، وتبغض الانكليز حتى النخاع.

مرقت سيارة جيب عسكرية باتجاه المعسكر ، وتبعتها اخرى .. وقال عاصم وهو لا يزال مسمرا عند الشباك محدثا نفسه : ماذا لو اقنع الزعيم بالعدول عن تفجير قتنبلته المشؤومة ، وارسال " انصار السلام "الى الموصل لاستفزاز اهاليها ؟!

نظر الى ساعته وتذكر .. بعد ساعتين أو ثلاث سينطلق القطار الصاعد من بغداد ، يحمل حشودا من الشيوعيين " انصار السلام " وغدا ستتفجر المدينة المكبوتة بالصراع الذي يتوقعه الجميع ، ويتوجس منه الجميع ، ولن يمضي اليوم بسلام .. آه لو اقتنع الزعيم بتوسلات الشواف للكف عن هذه المغامرة الملعونة ..

– عاصم ؟

❀❀❀❀❀❀

– ٣ –

انفرج الباب الداخلي عن قامة عبد الرحمن الشيخ داود ، الطويلة ، النحيلة ، المتدثرة بروب سميك ، ورغم اكتساح الشيب لشعره فان ملامح وجهه لا تزال تملك الكثير من الحيوية والصرامة ، لعله اكتسبها من خدمته الطويلة في الجيش ، وها هو الان محال على التقاعد .. بشرته سمراء مشربة بالحمرة ، وتقاطيع وجهه تمنح الالفة منذ اللحظة الاولى ، عينان ضيقتان

ذكيتان ، وفم مزموم ، وذقن حليق ، اما الشارب فلا يعدو ان يكون خطا من الشعر الابيض الناعم الذي لا يكاد يرى ..

كان الرجل معروفا بروحه المرحة ، وقدرته المتفننة في طرح النكات ، وكان يستطيع في اشد اللحظات قسوة واكتئابا ان يشيع الابتسام ، وان يرسم بالسخرية الذكية ما تعجز الكلمات الجادة عن ان تقوله ..

لكن .. منذ ان توفيت زوجته قبل اربع سنوات ، احس كما لو ان شيئا سقط من قلبه ، شرخا عميقا احدثه الحزن ، وكان في الايام الاولى يقول لاصحابه : ان بمقدوره ان يدخل قبضة يده في ذلك الشرخ ، وان ليس بمقدور احد ان يعيد قلبه كما كان ، الا انه بمرور الوقت كف عن طرح هذه الملاحظة ، وطوى صدره على احساس معذب بان الانسان إذا ما فقد رفيقة عمره، فانه يغدو ذليلا مهيض الجناح ، في نظر نفسه على الاقل ..

سلمى من جهتها ، كانت اقدر على تجاوز المحنة ، لكن ما كان باستطاعة قوة في العالم ان تنتزع من ملامح وجهها خطوطا من الحزن كانت قد استقرت هناك منذ الايام الاولى، وهي الخطوط نفسها التي اضفت على جمالها عذوبة ، وشاعرية ، وعمقا ..

اضاف عبد الرحمن وهو يحرك عينيه باستنكار :

– تريد ان تغادر الدار قبل ان تشاركنا الفطور ؟

سحب عاصم الستارة لكي يغطي زجاج النافذة ، وقال وهو يبتسم :

– انك تعلم يا عماه انني اعاني من متاعب في الكلية ، وان الاطباء نصحوني بالامتناع عن الصيام ..

– اعرف .. ولكن لا بد ان تشاركنا الطعام .. نصف ساعة أو اقل وتحين ساعة الافطار.

قال عاصم وهو يلتفت صوب الباب الداخلي منتظرا عودة سلمى :

– ولكني على موعد !

– اليوم ؟ الخميس ؟ الذي اعتدت فيه ان تقضي عندنا الساعات الطوال ؟

– ولكن ..

سحبه من يده واجلسه الى جواره :

– لن ادعك تمضي قبل تناول الطعام.

مرقت ثلاث سيارات عسكرية كبيرة محدثة صوتا مزعجا ، وثمة موجة خاطفة من الانقباض سيطرت على وجه عبد الرحمن ، ففقد الاريحية والرضا .. قال وهو يركز عينيه في الارض :

– هذه الليلة بالذات اشعر اكثر بالحاجة اليك .. بالحاجة الى كل معارفي واصدقائي .. لقد اصبحت الوحدة تفزعني ، وموجات الاكتئاب تكاد تطبق علي بين لحظة واخرى ، اتمنى ان اندمج بالناس لكي احس بالامن ..

- ساظل .. اجاب عاصم ، انني قبل لحظات كنت افكر فيما يمكن ان يتمخض عنه الغد ، انهم قادمون هذه الليلة ، لقد اخفقت كل المحاولات لايقاف المحاولة.
- اعرف هذا ...

وواصل عاصم :

- يقال انهم سيرسلون اكثر من قطار لكي تستوعب الحشود الكبيرة القادمة من بغداد ..

وقال عبد الرحمن محدثا نفسه : الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها ..

وتساءل عاصم :

ماذا لو استجاب الزعيم لتوسلات الشواف ؟

اجاب عبد الرحمن وهو ينهض لاشعال المصباح :

- يستجيب ؟ انه كان مصمما منذ اللحظة الاولى على تنفيذ لعبته ، ومن يدري ؟ فلعله يعرف جيدا ما يبيته له اللواء الخامس ، ويعرف اكثر رفض المدينة ميله الى الشيوعيين وتفرده بالسلطان ، وهكذا فهو يتعمد تفجير الموقف قبل ان يزداد تعقيدا ويفلت الزمام .. انها خطة مرسومة !
- ولكنه تحد مخيف ، فالسلطة هي التي تدخل طرفا فيه ، حبذا لو تسكت المدينة عليه ، فليس ذلك في طاقتها ، انه يسعى لضرب المواطنين ببعضهم ، ليس هذا تصرف رؤساء الدول على اية حال ..

اجاب عبد الرحمن وهو ينظر الى ساعته :

- ذلك هو ما يسعى اليه معتقدا انه الرابح في نهاية الامر ..
- بابا.

انفتح الباب مرة اخرى واطل وجه سلمى ..

نسي عاصم همومه ومخاوفه ، وتعلق بالوجه الجميل .. ماذا لو كانت الدنيا محض جمال وسكينة ؟ ماذا لو ساد السلام العالم ، وترك القتلة الناس ينعمون بالمحبة ؟ وقال في نفسه: انني مثلكم ايها القادمون من بغداد ، احلم بالسلام ، ولكنكم تتخذونه رداءا يخفي الخناجر والسكاكين ، وانا اريده حبا خالصا !

أردفت سلمى :

- الطعام جاهز ، وقد اوشكت لحظة الافطار ، لماذا لا تتحولان الى الغرفة الاخرى ؟
- قال عبد الرحمن وهو ينهض ملوحا بيده ،وكأنه يطرد اشباحه المقلقة هو الاخر :
- انني جائع حقا ، وقد اوشك صبري ان ينفد ... هيا يا عاصم ، فان الاكلات التي تعدها سلمى لا تفوت ، لقد تعلمت من امها كيف تطبخ الذ ما عرفت به الموصل .. هيا ..

وقال في نفسه : حقا ان للصائم فرحتين ، وهذه واحدة فكيف بالاخرى ؟ وقال : انني اعشق هذه الساعة التي تسبق الافطار ، انها تحقق الصلح والوفاق بين ما يعتبره الناس نقيضين ، شهوة المعدة واشواق الروح ..

ودخلا غرفة الطعام المتواضعة ، وما لبثت سلمى ان لحقت بهما .. لحظات ودوى صوت مدفع الافطار ، اجفل عاصم بعض الشيء ، فكتم عبد الرحمن ابتسامة كادت ان تطفو على وجهه ..

- معذرة ، قال عاصم ، ان الانسان يتوقع ان يحدث شيء ما في اية لحظة لقد تلفت اعصاب الناس ..

احست سلمى بشيء من عدم الارتياح ، وقال عبد الرحمن :

- لا بأس فقد نسمع غدا مدافع من نوع اخر ، سلمى ، قربي طبق الدولمة من عاصم ، ولا تفوتك الكبة ، فان اليد التي صاغتها بهذه الرقة لجديرة بالاعجاب !

نظر عاصم اليها ، وقال في نفسه وهو يتناول الطبق : اليد فقط ؟ وكأنها احست بما تقوله عيناه ، فغمرتها موجة من الخجل زادت وجهها تألقا ، وقال عاصم :

- عاشت يداك ! انني انتظر ايام الخميس بصبر نافد لكي التهم طعامك اللذيذ ..

اجاب عبد الرحمن وهو يقطع بالسكين كبة اخرى :

- ولكنك تقول ما لا تفعل .. كل .. واجعل الفعل مرادفا للقول !

ابتسم عاصم :

- سيكون ذلك ان شاء الله .. وما هي الا أيام قلائل حتى تنفرد سلمى بي ، وترغمني على ان افعل ما اقول .. والا ..

قال عبد الرحمن وهو يتذكر شيئا :

- وهل استكملت التأثيث ؟ ام ..

- تقريبا .. لولا ان النجار اخلف موعده معي ثلاث مرات ، ولكنني اخذت منه وعدا قاطعا هذه المرة بانجاز عمله خلال اسبوع واحد ، وسوف تصلني الاخشاب يوم الخميس القادم على ابعد الاحوال ..

كانت سلمى تجلس الى جوار ابيها قبالة عاصم، صحيح انها كانت معهما تشاركهما الطعام ، لكنها شيئا فشيئا كانت تبتعد ، وخلال دقائق انفصلت كلية عن متابعة الكلام ، وقالت في نفسها : ان ما يفصلها عن اليوم الموعود، اليوم الذي يتحرق خطيبها شوقا اليه ، شيء اكبر بكثير من الزمن شيء يستعصي على العد والحساب ، ليست الساعات والايام هي التي تفصلهما عن ذلك اليوم ، ولكن هناك شيء كالمصير الذي تتلاشى فيه ذوات الافراد ، وتتطلع الاعناق جميعا شاخصة مشدودة صوب يوم الفصل ، انه ليس ثمة عاصم أو سلمى أو عبد

الرحمن ، ولكنهم ثلاثة ضمن مئات بل الاف من الناس ، افلتت من ايديها مطامحها الخاصة ، وهي تقف اليوم على صعيد واحد ، تنتظر الكلمة وتتوقع الانفجار ، وتحلم بالخلاص ، اتراه يدرك ذلك ؟

– سلمى .. الا تحثيه على الاكل ؟

قال عبد الرحمن بلهجة اللوم .. اجفلت بعض الشيء ، لكنها سرعان ما تداركت الموقف:

– انها دارك يا عاصم ، ولا اعتقد انك بحاجة الى تشجيع ..

اجاب وهو يرغم نفسه على تناول لقمة اخرى مداراة لعمه :

– بالفعل !

وسرعان ما انتابه الاحساس المبهظ الذي حاصره لحظة جلوسه معها قبل اكثر من ساعة، انه ليس ثمة ما يربط بينهما بما فيه الكفاية ، هو يريد ان يقول لها كل شيء ، وهي لا تقول الا كلمات ، هو يريد ان يتوغل بعيدا الى الاعماق ، وهي ترغمه على الوقوف عند الحافة ، ماذا عساها تحس أو تريد ؟ وشعر كما لو ان الغضب المكبوت يتسلل الى عروقه .. غضب مم ؟ وضد من ؟ وقال في نفسه : لعنة الله على السلام وعلى انصار السلام ، انهم وهم في بغداد يبعدونها عني ، فماذا لو دخلوا الموصل ؟ أية قوة في الارض تعيدها إليّ ؟!

❁❁❁❁❁

– ٤ –

استيقظت متاخرة بعض الشيء ، لم تستطع ان تنام بسهولة ، كان عليها ان تصارع الارق لعدة ساعات ، وكانت تجد نفسها محاصرة بما هو العن من الارق .. احساس بالتمزق بين محبتها لخطيبها والذهاب معه بعيدا الى احضان الامن والسكينة ، وبين اشفاقها على المدينة التي يطبق عليها الحصار .. المدينة ؟ بكل تاكيد ، فلو ان عاصما يتجاوز قليلا احساسه الذاتي، ينفتح قليلا على معاناة الاهل والناس .. لعرفت كيف تكون سعيدة حقا .. هنالك حيث تتوحد المحبة بالقضية ، وحيث يصير الغرام دفاعا عن حرمات الله .. آه لو ان عاصما كان واحدا من هؤلاء الذين يقفون اليوم على التخوم ، يحملون خناجرهم ورشاشاتهم مستجيبين لنداء اللحظة التاريخية ، لتحدي القادمين من بغداد ..

هرعت الى غرفة ابيها فوجدته – كالعادة – قد غادرها منذ زمن ، وها هو الان يجلس في غرفة الاستقبال ، يتلو بصوت هاديء مؤثر ما تيسر من كتاب الله.

اومأت البيه بتحية الصباح ، فاكتفى بان يجيبها بابتسامة خفيفة ، وما لبث ان عاد الى تلاوته ، ووجدت نفسها تخطو إلى النافذة ، كان النهار مشرقا جميلا ، وكانت السماء زرقاء صافية كالبلّور ، لا تغطي عليها ولا قطعة من سحاب ، وعلى مدى البصر ، عبر شارع الغزلاني الطويل ، المتعرج كانت الارض المكشوفة تمتد وتنبسط واعدة بربيع سخي ، فرغم ان اذار لم يتوغل بعد ، رغم انه يحبو في ايامه الاولى ، الا ان العشب المغسول كان قد ارتفع بما فيه الكفاية ، وكانت تدغدغه هنا وهناك ازهار الموصل البرية التي كانت وفية دائما للارض والبلد ، النفل ذو الالوان البيضاء والصفراء والارجوانية ذات العطر الشذي .. الصقّير الذي آل على نفسه الا يدع الحنطة تنمو لوحدها ، وان يكون معها دوما .. حلّيب البزون الابيض الكثيف الذي يحلو له ان يحتل مساحات واسعة خاصة ما بين الخضرة الواعدة .. البيبون الذي تكاد تنفرّد به براري المدينة ، والذي اتخذه القدماء رمزا بتاجه ذي الوريقات الناصعة البياض ، تحيط بالقرص الاصفر الذي لا يكاد يكف عن بث رائحته الهادئة العذبة .. وهو – لسخائه – لا يكتفي بتطريز الارض الموصلية ، ولكنه يتجاوز ذلك لتطبيب المرضى وعلاج المتألمين ، فما من علة الا ويكاد يكون علاجها البيبون المغلي بالماء ، بعد نشره وتجفيفه .. وبما ان الارض الموازية للشارع ، صخرية التكوين ، فان ثمة ما هو اجمل من هذا كله ، يعين على تلوين الارض ومنحها غنى لونيا اشد اثارة وعذوبة ، شقائق النعمان المحمولة على سوقها النحيفة وهي تقطر دما !!

على يسار الشارع ، في المدى بين البيت والمعسكر ، كانت الارض ترتفع بشكل مفاجيء ، لكي ما تلبث ان تتحول الى تل شديد الانحدار ، يطل على سهوب المدينة الشرقية الى قريب من النهر ، وكان يدعى (تل الذهب) ..

هل حدث ان اكتشف معدن الذهب يوما في تربته الخصبة ؟ ام ان تكسر اشعة الشمس الغاربة على صخوره الناتئة يجعلها تبدو من بعيد كما لو كانت كتلاً من الذهب ؟ لا احد يدري .. ولكن الذي تعرفه سلمى جيدا ان اهالي الموصل القريبين من المنطقة يصعدون اليه في كل ربيع ، خلال الامسيات الدافئة ، حاملين معهم متاعهم ولعبهم واطفالهم ، لكي يقضوا هناك عدة ساعات ، الاطفال يلعبون ويركضون ، النساء يأكلن ويثرثرن ويضحكن ويدارين الشاي كيلا تستفزه النار فيغضب ويفور ويقذف بمراراته ، الشباب يتجولون هنا وهناك مسترقين النظرات الى هذه الفتاة أو تلك .. والرجال يفترشون حافة التل ويملؤون جوارحهم بالمنظر الجميل المترع غبطة واثارة ..

هنا .. أيضاً .. كان الانكليز قد اقاموا يوما معسكرا .. انهم يعرفون جيدا كيف ينتقون الاماكن الجميلة في كل بلد لكي يستأثروا بها .. ولا يزال الشبان يذكرون كيف انهم قبل عشر سنين – لا اكثر – كانوا يمرون من هناك ، فاذا الاسلاك الشائكة تحيط بالمكان ، واذا الجنود

الانكليز فيما وراءها يلعبون كرة القدم او الكولف ، وكيف انهم كانوا يتمنون لو تكون هذه الساحات الخضراء المنسقة لهم لكي يلعبوا هم بدلا من هؤلاء الغرباء ، اليست ارضهم ومدينتهم ، ويذكر الكبار أيضاً انه ما من شيء كان يثير حقدهم على الانكليز وكراهيتهم لهم كمشهد استمتاعهم ذاك في ساحات وروابي تل الذهب المترعة خضرة وعطاء ..

سلمى – من جهتها – تذكر جيدا ، كيف انها في السنوات التي سبقت وفاة والدتها كانت تخرج بين يوم واخر الى تل الذهب بصحبة والدتها وحشد من القريبات والاقرباء ، وكيف انها كانت تقضي هناك اجمل ساعات العمر.

ومنذ ايام وتل الذهب يتحفز لاستقبال اصدقائه وصديقاته ، لقد بدأ موسمه الدوري .. واخذت نباتات الخباز البري والفجيلة وخس الشيطان والحوّيك تتسلق بسرعة مدهشة الحافة الحادة للتل فتهيمن عليها ، ثم ما تلبث ان ترفع رؤوسها وتندفع باتجاه التل نفسه ملوحة باذرعها البضة واكفها الخضراء المسننة المغطاة بالزغب .. ها هو تل الذهب ينفسح الان على مداه للمتنزهين وعشاق الخضرة ، فلا اسلاك شائكة ، ولا ساحات مسيجة .. ولا انكليز .. ولكن لا احد يلبي الدعوة المفتوحة ..

ماذا دهى الموصل ؟ ولماذا لم تستجب كعادتها لنداء الربيع الابدي ؟

مرقت سيارتا نقل عسكريتان مكتظتان بالجنود واتجهتا شمالا صوب مركز المدينة ، اعقبتهما سيارة جيب تقل اربعة من الضباط الشباب وهم يحماون غداراتهم كما لو انهم كانوا متاهبين لشيء .. وتذكرت سلمى .. اذن فان في الامر ما يدعو الى القلق .. وتساءلت : ترى ماذا حل بقطار السلام ؟ ليس ثمة ما يمنع قدومه الا معجزة تنزل من السماء ، وقالت في نفسها: انني اعرف ابناء مدينتي جيدا ، ولكن هل ثمة من تكافؤ في القوى ؟!

– أبي ..

رفع عبد الرحمن عينيه عن كتاب الله ، ثم ما لبث ان وضع ورقة صغيرة بيضاء عند الصفحة التي توقف عندها واغلق الكتاب .. وكأنه كان يدرك ما يعتمل في نفس ابنته ، اذ انه سرعان ما قال لها :

– لا بأس ، سوف اغادر الدار بعد ساعة أو اقل ، لأداء صلاة الجمعة في جامع الشيخ عجيل، وساعرف هناك ما الذي يجري في البلد .. ان القلق يتآكلني يا سلمى ، وقد وجدت في كتاب الله عزائي .. في لحظات كهذه يعرف المرء كيف يكون القران شفاء لما في الصدور ..

قالت سلمى بتصميم :

– سآتي معك ..

– ولكن.

- هذه المرة ليست المرة الاولى التي اصلي فيها الجمعة في مسجد جامع ..

قال عبد الرحمن باشفاق :

- هذا اليوم .. لا ..

أجابت سلمى بنبرة متوسلة :

- لست طفلة يا أبي ، وساعرف كيف اتصرف ، ثم ان لي حشدا من المعارف والقريبات سيصلين معي ، انهن جميعا ينتظرن ولا ريب ما ستكشف عنه الساعات القادمة ، وليس ثمة غير هاشم عبد السلام ما يمنحنا اليقين والاطمئنان ويبعث في نفوسنا القدرة على المجابهة ..

قال عبد الرحمن وهو يبتسم :

- انتن ؟!

- ولم لا ؟

كان عبد الرحمن يدرك ان ليس في جعبته مبرر مقنع للرفض ، ولكنه حرص الابوة يتشبث بكل الاسباب لحماية الذرية من الاخطار ..

- ستأتين معي في الجمعة القادمة باذن الله .. اما اليوم فلا ..

عادت الى توسلها مرة اخرى :

- ما من يوم تتحتم فيه الصلاة في المسجد كهذا اليوم ، فلا تحرمني الفرصة التي ابل فيها غليلي ..

اراد الرجل ان يواصل مقاومته لكن جرس الباب اسكته ، وقال لابنته :

- لا ، ساخرج انا ..

اجتاز درجات السلم الاربع التي تفصل الشرفة عن الباب الخارجي وهو ينادي :

- من ؟

قال عاصم وهو يمد عنقه لكي يراه عمه من وراء الباب :

- انا !

- عاصم ؟

فتح الباب وهو يمد ذراعه صوب المدينة.

- في الوقت المناسب تماما .. انني متحرق شوقا لمعرفة ما يجري هناك ..

❁❁❁❁❁

– ٥ –

دلفا الى غرفة الاستقبال . كانت سلمى لا تزال واقفة هناك .. سلم عليها عاصم بصوت لا يخلو من اضطراب وقال عبد الرحمن :

– هيا ، قل ما عندك ..

– ليس قبل ان اجلس وأسترد أنفاسي ..

وأردف وهو يحدق في سلمى محاولا ان يتلقى منها الاشارة :

– لم ار بعيني الا اقل من القليل ، عبر طريقي الى هنا ، ولكن الناس يتحدثون عن امور خطيرة تجري في هذا البلد ..

تساءل عبد الرحمن بصبر نافد :

– مثلا ؟

واصل عاصم وقد استرد هدوءه :

– ولعل معظمها لا يعدو ان يكون مجرد شائعات ، انها تنتفخ وتتورم في زمن كهذا ..

قاطعه عمه :

– ولكن ماذا عن انصار الاسلام ؟

– وصلوا في موعدهم المعتاد ، وتدفّقوا على ارصفة المحطة كالجراد .. لم يكن قطارا واحدا ولكنها اربعة !!

قال عبد الرحمن وهو يضع حواسه كلها بين يدي عاصم :

– هكذا ؟!

وتساءلت سلمى :

– والضباط ؟

استمر عاصم :

– قيل ان بعضهم فقد السيطرة على اعصابه ، وتحفز للرد ، ولكنها الاوامر ..

تساءل عبد الرحمن وهو يزحف لكي يستقر اخيرا على حافة الايوان :

– اوامر ؟

– قيادة اللواء طلبت منهم ان يؤمنوا وصول انصار السلام الى هدفهم .. والا يستفزوهم ..

– اين ؟

– ساحة الادارة المحلية في شارع ابن الاثير ، حيث تقرر ان يقام بعد ساعة أو ساعتين مهرجان كبير .. و ..

قاطعته سلمى :

- ولكن ..
- كانت اصواتهم تشق الاجواء وهم يهتفون بالسلام .. والديمقراطية .. وحياة الزعيم ..

تساءلت سلمى وهي تتراجع لكي تجلس عند اقص طرف في الغرفة :

- واهالي المدينة ؟
- ثمة شائعات تقول بانهم قد تحفزوا للرد ، وان بعضهم قد انتشر عند اسوار الموصل القديمة في منطقة باب البيض ، يحملون رشاشاتهم ، وانهم قد اقسموا الا يدعوهم يمروا..

تراجع عبد الرحمن ثانية لكي يتكيء على حشوة الايوان ، وتساءل وهو يفرك مسبحته بعصبية :

- وموقف لواء المشاة ؟
- لا ادري ، هذا هو كل ما سمعته ، ان الشوارع تكاد تكون خالية ، وقال بعض من التقيت بهم: ان معظم سكان المدينة قد انسحبوا الى دورهم ، واغلقوا حوانيتهم في شبه احتجاج سلبي على عملية الغزو التي تتم باشراف الحكومة نفسها ، وانهم يسعون الى مقاطعة تموين الالوف القادمة من انحاء العراق وتجويعها واذلالها معنويا .. وقالوا أيضاً بان النساء والاطفال ساهموا في التعبير عن الاحتجاج بان قذفوا بعض السيارات القادمة بالحجارة والاقذار ، وبنداءات التهكم والسخرية .. و لا يدري المرء مدى صحة هذا الذي يقال ..
- لعلهم الآن يتجمعون في أماكن أخرى ؟
- يقال ان تظاهرة كبيرة تجتاز الان شارع نينوى متجهة الى راس الجادة ، ويخشى ان يكون هدفها ساحة الادارة المحلية ، حيث يتجمع انصار السلام .. قد تكون الكارثة ..

تساءلت سلمى بعصبية :

- أية كارثة ؟

أجاب عاصم :

- إذا وصل المتظاهرون الى هناك ، فان المدينة ستشهد مجزرة رهيبة ..

قاطعته متحدية :

- وهل يسمحون لهم باستباحتها ؟
- هذا خير على اية حال من ان يذبح ابناء الموصل وتستحيى نساؤها !

حاولت ان ترد ، ولكنها اثرت السكوت لتلهف ابيها على السماع ، والخيوط الخفية التي كانت تستفزها في شخصية خطيبها اخذت الان تنسل من الخفاء ، لكي تبدو ظاهرة للعيان ، وقالت في نفسها : لا بأس !

زحف عبد الرحمن ثانية الى حافة الايوان لكي يستوعب كل حرف يصدر عن عاصم ، وقال هذا في نفسه ، وقد شعر بشيء من الامتعاض لما اعتبره مجابهة غير معلنة بينه وبين

خطيبته : ها هي الجسور تنقطع ثانية ، وقوارب الوصل تغوص في الاعماق .. ان المدى بينهما يتسع ، وهو يحس الان بان اطمئنانه القديم اخذ يهتز .. ويتمنى ان يصرخ طالبا منها ان تعود اليه .. ولكن هيهات .. ايمثل دورا غير مؤمن به ؟ ايدعي ما هو غير قدير عليه ؟ ما لها ومايجري في البلد ؟ انها امرأة على اية حال ، وخير لها ان تأوي الى مرافيء الحب والحنان والسكينة من ان تجتاز البحر المرعب ، لكي يفقدها مرغما في لنوء .. والريح .. والعاصفة !

لن يكذب ، ولن يدها تتفلت منه الى المجهول .. وقال لعمه وهو يكظم حزنه وغيظه :

- خير للمرء ان يغادر الموصل الى بغداد .. هذه الايام على الاقل ، فان ما هو آت اشد هولاً مما هو عليه الان !

لعله اراد ان يستفزها .. ان يجعلها تقول كل ما عندها ، لكي يعرف كيف يداري الموقف .. ولعله كان جادا فيما كان يرمي اليه ، ولعله وضع ثقله الى جانب عمه ، فاذا اقتنع الرجل ، ما كان لسلمى ان ترفض الذهاب معهما .. وهناك .. في بغداد ، سيعرف كيف يستعيدها ثانية ..

لكن سلمى قالت بوضوح :

- لن يكون هذا .. انا لا اوافق عليه !

اجابها عاصم متوسلا :

- لا تندفعي وراء المثاليات يا سلمى ، فان الناس إذا ما دهمهم الخطر يجدون انفسهم مدفوعين للبحث عن الامان ..

قاطعته سلمى :

- ليسوا كلهم على اية حال ..

وتدخل عبد الرحمن محاولا ان يلطف الجو :

- على رسلكما ، فما هي الا وجهات نظر تقال في موقف عصيب كهذا .. وملتفت الى ابنته:

- ومن قال .. اننا سنغادر الموصل ؟

احست بارتياح عميق وكانها كسبت جانبا من المعركة ونظرت الى خطيبها كانما تريد ان تقول له : وماذا بعد ؟

استعاد عاصم بعض هدوئه وهو يقول :

- انني معك يا عماه ، فما هي الا وجهات نظر تقال ، فليس من السهولة بمكان ان يترك الانسان بلده !

سأله عبد الرحمن وهو يخفض صوته :

- والشواف ؟ وضباطه الاحرار ؟

- لا اعلم عن نيّاتهم شيئا ..

- طبعا .. ولكني اريد ان اعرف ما يقال ..
- حتى هذه الساعة فان اللواء بضباطه وجنده يسعى للحجز بين الطرفين ، يبذل جهود متواصلة من اجل منع الالتحام ..
- معنى هذا ان المهرجان سيقام ، وان انصار السلام سيقولون كل ما عندهم ، وسيكسبون التحدي ..

أجاب عاصم وقد بدا يحس بالملل والاعياء ، معبرا عنهما بتثاؤبة طويلة :

- ربما !!

فمن عجب ان ينهض عبد الرحمن قائما ، ويخطو صوب النافذة ، ويشير الى جامع الشيخ عجيل الذي يقوم على بعد عدة مئات من الامتار قائلا :

- ونحن أيضاً سنقول كل ما عندنا !

نظر اليه عاصم دون ان يفقه شيئا بينما واصل عبد الرحمن :

- سنصلي الجمعة هناك ، وسيعرف هاشم عبد السلام كيف يرفع صوته مستجيبا للتحدي ..

نهضت سلمى هي الاخرى قائلة بنبرة منفعلة :

- عاصم .. الا تاتي معنا ؟

فغر فاه وهو يسالها :

- انت ؟!

❁❁❁❁❁❁

- ٦ -

اعتذر عاصم عن الذهاب وقفل عائدا بسيارته ، وانطلق عبد الرحمن وابنته صوب الجامع .. ثمة طريق اقصر يوصل اليه ، ان يجتازا الحقول الخضراء الممتدة بين شارعي الغزلاني والمطار ، حيث تتبعثر مجموعات من الدور هنا وهناك بدلا من الالتفاف الطويل عبر الطرق المرصوفة .. واذ اقتربا من هدفهما ، شهدا حشود الناس تتجه اليه ، والاصوات تتعالى متحدثة عما هو كائن وعما سيكون.

كان المسجد قد غص بالمصلين ، وكذلك الباحة الخارجية المكشوفة ، فاضطر الناس الى تحويل الارض الخضراء المقابلة للجامع ، عبر الشارع الى مسجد كبير وثمة عدد من الشبان المسلحين ينتشرون عند حافاتها تحسبا للمجهول.

ألوف من المصلين جاؤوا من كل مكان لكي يلتقوا برجل المدينة وامامها هاشم عبد السلام ، فهو يعرف كيف يتحدث ، وكيف يتحدى ، وهو يعرف – كذلك – كيف يجعل الجذوة المشتعلة في الصدور تزداد توقدا واشتعالا.

من هنا .. وهناك .. وعبر هذا الشارع وذلك الزقاق كان الناس يتدفقون .. ليس ثمة غني أو فقير ها هنا .. ليس ثمة كبير أو صغير .. انهم يتوحدون اللحظة .. ينصهرون .. يتجاوزون عالمهم الذاتي المحدود ، لكي يضعوا وجودهم على صعيد واحد امام الله .. والتاريخ .. والضمير ..

لمحتهم سلمى .. كانوا يحسون بسعادة بالغة وهم يفترشون الارض بانتظار الخطبة .. وكأنهم ، بالايمان والتوحد ، تجاوزوا حدود المخاطر المنتظرة ودخلوا مملكة الامن والرضا، هنالك حيث يكون الانسان على استعداد كامل لان يموت وهو قرير العين.

وقال عبد الرحمن في نفسه وهو يقترب اكثر من جموع المصلين : ها هي ذي الصلاة التي كنت احلم بها ، انني اجدني قبالة الله فيما يصعب علي التعبير عنه .. والتفت الى ابنته :

– سلمى ، اذهبي الى هناك حيث النسوة يفترشن الارض ويؤدين الصلاة ..

تركته سلمى واتجهت الى حيث اشار ، واختار هو مكانا من الارض بين حشد من المصلين..

وما هي الا دقائق حتى قدم هاشم يحوطه ثلاثة من الشبان المسلحين .. قامة فارعة ، ووجه اسمر ممتليء ، تزينه لحية قصيرة ، وعينان سوداوان تتقدان جرأة واشتعالا ..

ارتقى المنبر ، فاذا باصوات الالوف المتجمهرة من المصلين رجالا ونساء ، تخفت فجأة، ويهيمن على المكان هدوء عجيب ..

لم يقل الرجل كلمات ولا صاغ احرفا ، هكذا قالت سلمى في نفسها ، لكنه اطلق شواظا من نار .. وكان يعرف كيف يحرك افئدة المصلين فيبكيهم ويضحكهم ، ويرضيهم ويسخطهم ، يطفيء هواجس التردد والخوف ، ويشعل نار التحدي والاستنشهاد.

وكان ، وهو يستعرض الوقائع ويعلق عليها ، كمن يعلم مسبقا ان الرد على التحدي سيكون عما قريب ، وان حدثا كبيرا ستشهده المدينة بعد يوم أو يومين ، وربما بعد ساعات .. وان خطبته هذه ما هي الا حشد للطاقات وتهيئتها لليوم الموعود.

وعندما ختم كلماته وغادر المنبر لكي يؤم المصلين ، كان صوته وهو يرتل آيات من كتاب الله كالشلال ، يجتاز المسجد الى الباحة ، لكي ينداح بعدها في المدى ..

واحس عبد الرحمن بنشوة روحيةعارمة تغمر عقله وحسه ووجدانه ، وقال في نفسه : ها قد اعادني الرجل الى شبابي .. اني على استعداد اللحظة لان انطلق مع اخواني متحديا .. صارخا ..

وما كان يحس به عبد الرحمن ويقوله ، كان يتصادى في نفوس المصلين جميعا .. سلمى احست من جهتها بتوقد اكثر ، وكانت تشعر بسعادة غامرة وهي ترى اخر شرخ في وجدانها يتضاءل ويختفي .. ليس بمقدور خطيبها بعد اليوم ان يسحبها ثانية الى مواقع التردد والازدواج .. في لحظات المصير ليس ثمة خيار ، فاما الامن والاستقرار ، واما الخوف والمطاردة والغربة .. لكنه امن يخفي وراءه الخزي والذلة ، وتغرب يمنح الانسان المؤمن اعز ما يطمع اليه : التوحد ، وتلك هي السعادة التي يبتغبها المؤمنون.

وكان بمقدور هاشم عبد السلام ، وقد اشعل نفوسهم وصعد بها صوب نقطة التوتر القصوى ، ان يقودهم في تظاهرة هادرة ، وان يتحدى بهم ليس انصار السلام فحسب ، بل السلطة نفسها ..

لكنه لم يفعل .. لقد كان يعرف ان الارتطام بالغزاة هو ما كان يريده طاغية بغداد .. ومن يدري ، فلعل في الامر ما يخفى على عبد الرحمن وابنته وجل المصلين الذي اضطروا للعودة الى دورهم وهم يطوون صدورهم على الغضب ، وقلوبهم على الجمر الذي يتطاير شررا ..

❁❁❁❁❁❁

– ٧ –

غادر هاشم عبدالسلام المسجد الجامع وهو يستعيد في ذهنه الاحداث المتلاحقة لهذا اليوم ، ولما ينقضي بعد سوى نصفه الاول .. لكنه وهو يستسلم لتداعي الافكار والخواطر ، وجد نفسه يعود المرة تلو المرة عند واحدة منها.

قبل يومين فقط اتيح له ان يلتقي عرضا باحد معارفه القدامى حنا جرجيس في جريدة الانوار المحلية ، حيث كان يلتقي بعض مثقفي البلد والمعنيين بالشؤون العامة.

نهض حنا واقفا لدى مشاهدته هاشم عبد السلام ، وقال بحرارة مصطنعة :

– اهلا بالصديق الغائب ، لشد ما كنت اتوق للقاء كهذا .. ان لدي الكثير مما اريد ان اقوله لك.

استأذن صاحب المطبعة شيت الموصلي بدخول الصالة لمتابعة بعض اعماله هناك ، بينما أجاب هاشم باقتضاب :

– فرصة طيبة.

أراد ان يجلس قبالة حنا ، ولكن هذا الح عليه ان يكون في جواره

– منذ متى ونحن لم نلتق ؟

تساءل حنا وهو يبتسم.

أجاب هاشم :

- ليس باقل من سنتين على ما اظن.
- اكثر .. اكثر .. الا تود ان تشرب شيئا ؟
- ليس غير الشاي الغامق ما يعيد للراس استقراره ، فان الانسان يعاني من الدوار المزمن في هذه الايام !

قال حنا وقد احس بالوخزة :

- ولكنك بخير والحمد لله !

اجاب هاشم بصراحته المعهودة :

- لن اكون بخير ومدينتي تتلوى تحت وطأة غزو سيسخر له الزعيم حشودا من ادعياء السلام.

انكمش حنا بعض الشيء ، وبذل جهدا مزدوجا لاستعادة بشاشته وتغيير الموضوع للابتعاد عن نقطة المجابهة .

- الحق انني منغمر هذه الايام حتى شحمة اذني في ترجمة كتاب للمستشرق المعروف برنادرد لويس (الاسلام والغرب) وانت تعرف ان المرء إذا رمى ثقله في عمل كهذا فانه ينسى الدنيا وما فيها .. أو يكاد !

كان حنا جرجيس داود واحدا من مثقفي المدينة الجيدين وكان متمكنا من الفرنسية والانكليزية الى حد كبير ، ومع ان عمله في مديرية معارف المدينة كان يستنزف منه الكثير من الوقت فان هذا لم يصرفه عن توجهه الاساسي ، القراءة والترجمة وكتابة بعض المقالات والبحوث القصيرة في مختلف شؤون الفكر ، وبخاصة التاريخ والحضارة ، ونشرها في عدد من الصحف والمجلات.

أجاب هاشم :

- ولكنك على ما بلغني عنك بدات توجه اهتمامك نحو مسائل اخرى غير الترجمة والقراءة..

حدق فيه حنا عبر نظارته ذات الاطار المعدني الاصفر الرفيع ، وادرك ان محاولة تغيير دفة الحوار صوب وجهة اكثر ودية امر غير مجد .. فتحفز للمواجهة هو الاخر ، ولكن ليس قبل استنفاد اخر الامكانات الدبلوماسية.

- هاشم ، انك تدري كيف ان المرء قد يستل احيانا من صميم عمله وهوايته ، بل قد يبعد عن اهله مرغما دون ان تكون لديه القناعة الكاملة بهذا الفراق !

أجاب هاشم وهو يبتسم :

- يعني انك انتميت الى حركة انصار الاسلام في الموصل مرغما ؟ وذهبت الى بغداد للتنسيق مع اللجنة المركزية على غير رغبة منك ؟!

ابتعد حنا في مكانه قليلا ، واتخذ وضعا يمكنه من تجاوز نظرات هاشم الساخنة ، وقال:

– ليس هذا ما اعنيه ، انما ..

اردف هاشم وهو يمد يده الى جيب جبته ، ويستخرج مسبحة حمراء راح يطقطق بجباتها:

– المدينة كلها تتحدث عن هذا .. انها ليست مسالة استنتاج أو تخمين ، ولكنا حقيقة مشهودة كلقائي بك في هذه اللحظة.

قدم صبي المطبعة بكوبين من الشاي ، فتناول حنا احدهما وقدمه الى هاشم ، ووضع الاخر ، امامه على النفاضة الصغيرة.

– الحق انني احلم بانتمائك انت ايضاً الى انصار الاسلام.

صرخ هاشم :

– انا ؟!

– نعم انت .. ماذا في ذلك ؟ انها لو اردت الحق حركة لتعزيز القيم النبيلة ، وحماية الانسان من القتل والفناء .. اتراك نسيت ويلات الحرب الثانية ؟، وما فعله النازيون ضد امن الانسان وسلام العالم ؟

– لا تذهب ابعد مما يجب .. اننا هنا في العراق .. و في مدينة الموصل بالذات ، ودعنا من المثاليات التي تتخذ ستارا لممارسات نقيضة في اغلب الاحيان .. ما الذي ينويه انصار السلام؟

قاطعه حنا جرجيس :

– وانا أيضاً ارفض الحديث على مستوى النوايا ، ولنسال ما الذي فعله انصار الاسلام ؟

قال هاشم :

– الحق معك ، فلنجب على السؤال من هذه الزاوية .. انصار السلام إذا اردت الحق لا يعدون ان يكونوا احدى واجهات الحزب الشيوعي ، وانك تعرف جيدا كم يتصاعد الغزل هذه الايام بين الشيوعيين وبين عبد الكريم قاسم ، وكيف انه اتخذهم ادوات لتدمير كل من يقف في طريقه ، ولا اعتقد ان مثقفا جادا يحترم الانسان يمكن ان يبرر الطغيان أو يسمح لنفسه ان يغدو اداة لحمايته.

وكمن يتلقى ضربة غير متوقعة في حلبة الملاكمة ، احس حنا بان حججه تتهاوى الواحدة تلو الاخرى .. لكنه قرر المقاومة حتى اخر لحظة.

– ان عددا من علمائكم انتموا للحركة ، فلو انهم راوا في ذلك بأسا لما فعلوا. انني دعوتك من هذا المنطلق .. انك تعرف جيدا الامام حامد السلمان ، وتعرف كذلك الامام يونس العبد الله ، وكلاهما الان من انشط العناصر في انصار السلام ..

اجاب هاشم وهو يفرش ابتسامة ساخرة على مدى وجهه :

– سيذهبان يوم غد الى بغداد مع وفد الحركة للتنسيق بصدد غزو المدينة ..

قاطعه حنا بشيء من العصبية :

– ولم تسميه غزوا ؟!

قال هاشم بهدوء :

– لأن صحفكم اطلقت عليه هذه التسمية !

تساءل حنا مستنكرا :

– صحفنا ؟

– بكل تاكيد ، فمادمت تعترف بانك اصبحت واحدا من انصار السلام ، وما دام انصار السلام لا يزيدون على ان يكونوا واجهة من واجهات الحزب الشيوعي ، فان ما تقوله جريدة اتحاد الشعب ، هو ما تقوله انت بالضرورة .. والا تحتم عليك ان تنسحب لحظة ارتطام مقولات منظمتك بقناعاتك الخاصة !

اجاب حنا وهو يحس بتضييق الخناق عليه :

– وعلماؤكم الذين انتموا للمنظمة ؟!

– هم كبعض قسسكم الذي دخلوا كوادر حزب ملحد لا يؤمن بكلمة واحدة مما تقوله الاناجيل..

اعترض حنا :

– ولكن ..

واصل هاشم :

– ان هذا لا يعني شيئا البتة ، وكما يقول المثل المعروف : ان الاستثناء يعزز القاعدة ولا ينفيها .. فهناك على الطرف الاخر الوف من علماء المسلمين ورجالات الكنيسة النصرانية في العالم ، يقفون بايمان عميق بمواجهة الكفر والالحاد اللذين يسعيان لاكتساح العالم باسم الايديولوجية ، وقوانين الحركة التاريخية ، وحماية الانسان ، وانصاف المظلومين .. حنا قل لي باسم قناعاتك الذاتية ، من احق بهذه الدعوة نحن ام هم ؟!

اجاب حنا وقد استعاد شيئا من توازنه :

– لا اجد ثمة علاقة البتة بين اختياري الشخصي وبين موقف الكنيسة ! ان ..

قاطعه هاشم بهدوء :

– ها هنا ، اعرف جيدا كذلك ، ما الذي فعلته !

تساءل حنا بشيء من العنف :

– ماذا ؟

قال هاشم :

– انك واحد من الذين يسعون لتسخير الكنائس في الموصل لخدمة الموجة الجديدة بحجة الوهم الذي صنعه اعداؤنا واعداؤكم ، وهو ان هناك خطرا تاريخيا مشتركا ..

سأَل حنا وقد أحَسَّ أن أوراقه اصبحت مكشوفة اكثر مما كان يتصور :

– أي خطر مشترك هذا ؟

قال هاشم :

– الاسلام !

– ولكن ..

– دعنا من لكن هذه .. واجبني على سؤالي المحدد : الم تعقد قبل يومين اجتماعا موسعا في كنيسة قاصد الرسول في محلة الرابعية ؟ ما الذي كنت تستهدفه ؟ وقبل هذا ، من الذي دفع بك الى هناك ؟ اهي قناعتك الخاصة ؟ ام الالتزام باوامر المنظمة التي عهدت اليك بهذه المهمة ؟

اراد ان يتكلم ، ولكن هاشم اسكته باشارة من يده وهو يتسائل :

– اما كان يجدر ان نضع ايدينا بايدي بعض ، وان نتحد لمواجهة موجة الانحلال والالحاد التي تهدد البلاد ؟ ان الهنا والهكم واحد ياحنا ، وسعيك احرى ان يتجه اليهم .. الى دائرته الحقيقية ، حيث الايمان يكافح من اجل حماية وجوده في العالم.

ومرة اخرى سعى حنا لكي يرد ، ولكن هاشم واصل حديثه :

– انني اخشى ان تندفع اكثر في هذا الطريق ، وان تورط معك الكنيسة ، فتقعان في الخطيئة التاريخية حيث لا معذر ، واخشى – كذلك – ان يكون الزعيم قد سعى لاستخدامكم ، ليس لتعزيز مواقع المد الشيوعي الجديد كما يتوهم الكثيرون ، وانما لتعميق الشرخ بين المسلم والنصراني فيما يمكن ان يزيد من قبضته اكثر فاكثر .. انني ماكنت اتوقع ان ينساق مثقف ذكي مثلك لممارسة لعبة كهذه ..

نهض حنا واقفا بقامته النحيلة ووجهه المائل للصفرة ، وبذلته الانيقة واخذ يذرع الغرفة وهو يقول :

– لك ان تتحدث بما تشاء ، وتستنتج ما تشاء ... ولكني احب ان أعلمك بان حركة التاريخ التي تتجلى هذه الايام عن حتمياتها المنتظرة سوف تطوي هذه الاستنتاجات الخاطئة ، وسوف تؤكد شيئا واحدا هو صدق موقفي وسلامته .. واخشى ان تجيئني يومها معتذرا ..

نهض هاشم بدوره ، وتقدم خطوات لكي يقف قبالة حنا ، وقال بصوته ذي النبرة القوية الواضحة :

– انا اجيئك معتذرا ؟ لو تحقق هذا يا حنا ، لو تحقق بما يريده ويخطط له الاستعمار ، وليس حتميات التاريخ وتجلياته كما توهمون به جماهير الناس ، فانني ساجيئك يومها ليس معتذرا، ولكن مقاتلا أو شهيدا !!

❁❁❁❁❁❁

– ٨ –

لم يخرج هاشم عبد السلام عن خواطره سوى توقف سيارة جيب عسكرية على حين غفلة قريبا منه ، غادرها ضابط شاب برتبة ملازم اول ، وحيا هاشم ، ثم ما لبث ان خفض صوته وهو يقول :

إن امر اللواء ، العقيد الشواف ، يرجو ان يلتقي بك مساء هذا اليوم في داره ، بحدود الساعة التاسعة.

وشد الملازم على يده وهو يساله :

– هل اجيئك قبل الموعد لاقلك الى هناك ؟

اجاب هاشم :

– لا .. فاني ارى ان اتي بسيارة مدنية لاحد الاصدقاء ، فذلك افضل.

ازَّ محرك السيارة وانطلق الملازم عائدا الى المعسكر بينما واصل هاشم طريقه الى داره في محلة الجامع الكبير ، مجتازا عددا من ازقة الموصل القديمة حيث لا يفصل الدور عن بعضها – احيانا – سوى شرايين ضيقة اشبه بممرات لا تتسع لاكثر من شخص أو اثنين، وحيث تميل الجدران المغلفة بالمرمر الازرق الجميل على بعضها ، وكانها تتحدث الى بعضها ، مضيقة الخناق اكثر على المارة. وحينذاك كان سكان الزقاق يلجؤون الى اسناد جدرانهم المتداعية باعمدة غليظة من الخشب خشية ان يهوي بعضها على بعض.

جميلة هي محلات الموصل القديمة .. بافيائها الظليلة ، بنسائمها الرطبة ، بطرقها الملتوية غير المرصوفة ، بتكويناتها المعمارية المتقنة ، بقناطرها المعقودة ، وبدورها التي تعد آية في قدرة البناء الموصلي على اعتماد المرمر الازرق واللعب به والتفنن على واجهاته .. حيث الزخارف المتقنة ، والنوافذ الصماء ، والاعمدة الاسطوانية ، والتشكيلات الجمالية التي تستهوي العيون وتستجيب لاشواقها ..

ان الغرباء الذين يزورون هذه الازقة ، ويدخلون دورها ، يتذكرون والحنين يعتصرهم، مدن الاسلام القديمة التي لاتزال تشخص ببعض تكويناتها متحدية الزمن ، والتاريخ .. قرطبة .. غرناطة .. دمشق .. القاهرة القديمة ، وبغداد ..

وتنهد هاشم وهو يسحب نفسا عميقا ويزفره باسى ، وانتصب ازاء ذاكرته حنا جرجيس مرة اخرى. وقال في نفسه : لعله الان يلقي كلمته في مهرجان انصار السلام ، فهو واحد من الاسماء التي تردد انها ستقول كلمتها في المهرجان ، ولعله بعدها ، ييمم مع عدد من رفاقه صوب دير ماركوركيس حيث تقرر عقد مؤتمر اضيق نطاقاً هناك يحضره زعماء الحزب الشيوعي وانصار الإسلام !

دير ماركوركيس ؟ ما اغرب ان يحدث هذا .. ولكن لا بأس فها هي توقعاته تتحقق ، وما قاله لحنا قبل يومين سينفذ بالحرف عصر اليوم !

كان الدير يقع في الجهة الشمالية الشرقية للمدينة ، على الضفة الاخرى من نهر دجلة ، يمتطي بمنشآته الجبسية العتيقة ربوة من الارض تطل على الهضاب والسهول المحيطة بها ، وتمنح الفرصة للناظر لكي يمتع بصره بالنهر وهو يتلوى هناك عبر مساحات واسعة من الارض المغطاة باشجار الصنوبر والحور والسرو والسنديان ، قبل ان ينحدر لكي يخترق الموصل ويمنحها ماءه بسخاء.

وكان اهالي المدينة إذا ما خرجوا في امسيات الربيع عبر نزهاتهم التقليدية يبحثون عن مكان مناسب ، ما وجدوا مكانا ابدع ولا اجمل من روابي ماركوركيس انها في هذا الفصل تشع خضرة وجمالا ، وتمنح – بتنوع تركيبها وتعقيده – متعة اكبر للمتنزهين ..

مئات من مواسم الربيع والناس يبحثون عن فرحهم ، ويلتقون به عند رو ابي ماركوركيس المتموجة الخضراء ، والموصلي الذي لا يذهب الى ماركوركيس ولو لمرة احدة في الربيع ، فكأنه ما عرف هذا الفصل ولا شم رائحته ، كأنه اختار ان ينفى من حضرته التي عرف كيف تمنح الجمال للواصلين ..

اذن ، قال هاشم ، سيكون لقاؤهم عصر اليوم هناك ، وسيحتضنهم الدير ... ومن يدري؟ فقد يباركهم بعض الرهبان المنقطعين للعبادة وهم لا يدرون ما الذي يدور بين ظهرانيهم ، وفي اروقة وباحات معبدهم العتيق !

انعطف يمينا ، ودلف الى طريق ضيق يتفرع عن شارع نينوى ، وما لبث ان وجد نفسه قبالة الجامع النوري الكبير ذي المنارة الحدباء الشاهقة ، والمصلى الواسع ، والفناء المترامي ..

وأحس ، وهو يحدق في المنارة العالية ، باطمئنان عميق .. وقال في نفسه .. ها هي ذي المنارة المتفردة التي بناها يوماً نور الدين محمود ، قاهر الغزاة الصليبيين .. الموحد والمحرر .. واختار لها مكانا في قلب المدينة ،ومد اسبابها الى السماء لكي تبرز واضحة للعيان من أي

مكان يلقي منه المرء بصره .. لقد ظلت قائمة ، عبر القرون المتطاولة ، بانسيابها الجميل صوب الاعالي ، شاهدة على انه ما من احد يقدر على تغيير وجه المدينة الاصيل.

وتساءل ، وهو يصعد عبر درب جانبي بمحاذاة الجامع ، لكي يغدو على بعد خطوات من بيته: اتستطيع قوة في الارض ان تنزع عنا ملامحنا ، وان تغير بصمات اصابعنا ؟ وقال ، وهو يتذكر تحدي بعض الشيوعيين بانهم لو اتيح لهم الانتصار ، فلن يبقوا على منارة واحدة في البلد يرتفع منها النداء إلى الله ، ان الموصل اعلنت انتمائها منذ قرون إلى منارتها العالية ، اخذت منها اسمها ، واكتسبت عظامها العارية ، بقوة الروح التي تبثها ، لحما ودما .. افيكون بمقدورهم ان يغيروا بصماتها أو ينزعوا عنها ملامحها ؟!

ما لبث ان ولج هاشم الى داره .. وما ان وضع خطواته الاولى على الممر المكسو بالحلان والمفضي الى الحوش ، حتى صفعته اصوات حفنة من اطفاله وهم يتصايحون هناك .. وقفز علي لكي يتسلق كتفه كما اعتاد دائما ..

ابتسم هاشم بصبر نافد ، وسحب الطفل لكي يضعه على الارض ثانية ، فاحس هذا بشيء من خيبة الامل ، ولكنه سرعان ما اندمج في اللعب ، ونسي جفوة ابيه التي لم يعتدها من قبل ..

سيجيء اليوم الذي يتاح لي فيه ان العب معكم ايها الصغار ، قال في نفسه ،اما اليوم فان هناك من يريد اغتيالنا .. من يريد ان يحرمنا حق اللعب ، والابوة .. وعلينا ان نتصدى للمحاولة لكي نعيد للحياة عذوبتها ، وللصغار لعبهم البريء ..

صعد درجات ثلاث باتجاه الايوان الذي يتصدر الحوش كالعادة .. كان الدار رغم فقره الواضح ، يتضمن الكثير من الوحدات المعمارية للبيت الموصلي القديم الذي غدا جزءا اصيلا من تراث مدينة يمتد عمرها مئات السنين ،الايوان العالي ذو القوس المدبب ، اللوحة الجبسية التقليدية التي تتصدره بآية كريمة أو مثل سائر أو حكمة بالغة ، والتي يتعايش فيها الابيض والازرق بتناغم بديع .. الوحدات الزخرفية المعقدة على المرمر الممتد اعلى الابواب والنوافذ ، تغور حينا ، وتتلوى حينا ،وتتساب احيانا وتحكي بطريقتها الخاصة قصة جيل من الناس عشقوا الحجر الازرق ، فنقبوا عنه واستخرجوه ، وعرفوا كيف يجعلونه يتحدث ويغني ، وهو محبوس هناك ، كالعصافير السجينة ، في دورهم العتيقة ..

وكالعادة – أيضاً – فقد كان الايوان يفضي الى غرفتين معقودتين عن اليمين والشمال .. مفروشة ارضياتهما بالمرمر ، ومصفوفة على جدرانهما الدواليب الخشبية ذات الافاريز المحفورة على شكل ورق العنب ذوات الحواف السبع البديعة .. وعلى الاطراف الثلاثة لإحدى الغرفتين كانت تمتد الفرش المغطاة بالسجاد الملون ، تفصل بينها وبين الجدار الوسائد ذات الرؤوس البراقة بقماش الكريبساتان ذي الالوان الفاقعة ..

اجتاز هاشم مدخل الغرفة اليمنى ، ونزع عمامته وجبته وعلقهما على مشجب يبرز من وراء الباب ، واستلقى مرهقا عند اقرب مكان .. تنفس بعمق وهو يشعر بارتياح بعد جولته المرهقة تلك ..

– هل آتيك بلحاف لكي تنام قليلا ؟

نادت زوجته من الحوش ..

– لا ، فانني اريد ان ارتاح قليلا .. ليس في نيتي ان انام .. هل اكل الصغار ؟

– وهل سينتظرون حتى هذه الساعة ؟ لقد تغدوا منذ اكثر من ساعتين !

احس فجأة انه آذى اصغر اطفاله ، علي ، الذي كان يحلو له ان يدلله كثيرا ، فطلب منها ان ترسله اليه ..

– سوف يفسده تدليلك .. يارجل ..

– ارسليه ..

بعد لحظات كان الطفل يتسلق الدرج بخفة ، ويدخل الغرفة مسرعا لكي ما يلبث ان يرتمي في احضان ابيه ..

❁❁❁❁❁❁

– ٩ –

تلفع بكوفية بيضاء ، واحكم وضع نظارت غامقة على عينيه ، واستبدل بالجبة والعمامة بدلة اعتيادية وغادر الدار.

كانت تنتظره عند مدخل الزقاق المفضي الى الشارع الرئيسي ، سيارة فوكس هول عتيقة موديل ٩٥٢ ، وكان يجلس وراء مقودها احد اصدقائه القدامى : حازم صبري .. سلم عليه وهو يقفز الى جواره ، فقرقعت السيارة المرهقة ، ثم ما لبثت ان انطلقت بصعوبة باتجاه شارع نينوى ..

لكثرة ما كان يدور في رأسيهما من اشياء يمكن ان تقال ، فان ايا منهما لم يشأ ان يقول شيئا .. قد تكون الكثرة مدعاة للقلة كما ان الاكتظاظ احيانا قد يجاور العدم ..

– ماذا فعلت بعد ظهر اليوم ؟!

اجفل هاشم بعض الشيء ، بينما واصل حازم صبري :

– لقد وضعت جماهير المصلين على حافة النار ، ثم قلت لهم – بعدها – : حذار ان تلقوا بانفسكم فيها !

ابتسم هاشم وهو يتخلل لحيته القصيرة من وراء الكوفية وقال :

– لأنه ليس من المعقول ان ندفعهم الى الاحتراق .. لم يأن الاوان بعد ..

تساءل حازم بنفاد صبر :

– متى اذن ؟ لقد بلغت اعصاب الناس في توترها الذروة ، وليس ثمة من منزع ..

أراد هاشم ان يغير الموضوع ، فضرب بكفه على دشبول السيارة المتشقق ، وهو يقول :

– الا تستطيع ان تعثر لي على سيارة مثل هذه ، أو أسوأ منها قليلا ، شرط ان يقبل صاحبها بتأجيل الدفع ؟

– ولم ؟ ان سيار تي هذه وصاحبها تحت امرك !

– شكرا .. شكرا وانما انا بحاجة اليها لعشرات من التنقلات اليومية .. ان انتظار الباص أو المشي على الاقدام يستنزف منا وقتا طويلا ..

تساءل حازم وهو ينعطف يمينا باتجاه شارع الثورة في طريقه الى الدواسة.

– بالاقساط ؟ انني اعرف رجلا على استعداد لذلك ..

وتذكر هاشم .. إنه لا يكاد يسد براتبه الشهري المتواضع مطالب عائلته المعاشية ، فكيف سيجازف بشراء سيارة قد تحمَّله مئة وخمسين دينارا ؟ وشعر بشيء من الارتياح وهو يتذكر صديقه ابراهيم عبد الباقي الخياط ، الذي سبق وان وعده باقراضه أي مبلغ يشاء.

كان هاشم ينتمي لبيئة فقيرة .. بيئة مسحوقة بمعنى الكلمة .. وقد بدأ واقرباؤه من نقطة الصفر كما يقولون .. وها هم الان يتدرجون ببطء على طريق الكسب ، فقراء ، كادحين .. وكان هو يكدح معهم .. ولم يجد ضيرا ابدا في ان يمارس بين الحين هذه المهنة أو تلك من اجل دعم مطالب اهله المعاشية . ومذ كان صبيا كان قد تعلم بعض المهن .. النجارة بخاصة .. فغدت بالنسبة اليه ظهيرا يعينه على اسناد دخله المحدود كلما حزب به الامر ..

وتساءل : ما الذي يمنعه من الانتماء للحزب الشيوعي ما دام انه حزب الشغيلة والكادحين ؟ وقال في نفسه : استغفر الله !! انهم مخطئون بكل تاكيد ، فان القتال ليس دائما بين الغنى والفقر انني قد اسكت على الذين يجوعوّنني رغم انني امرت ان اقاتلهم ! ولكنني لن اسكت بحال على الذين يحجبون عني حق الانتماء للكون .. كسر القشرة الصلبة والجدران القريبة ، والامتداد في افاقه اللانهائية .. الذي يقطعون جذوري الادمية عن موطنها الاصيل وتربتها الحقيقية ، ويسعون الى تضييق الخناق على انسانيتي والعودة بها ثانية – بعد اذ هدتها الاديان السماوية عبر رحلة الزمن الطويل – الى عصور الغريزة والاصطراع على القوت ..

ان الاغنياء الذين اعماهم البطر قد ينتمون اليهم يوما ، وقد يقتنعون بدعواهم ، فالطرفان قد يلتقيان في نهاية الامر عند ضرورات البحث عن اشباع الحاجات الجسدية ، اما الفقراء الذين لم تحجب الملذة يوما على ابصارهم ، فانهم سيتولون كبر قتالهم !!

وطفت على وجهه ملامح السخرية والاحتقار ، وهو يتذكر خطا من اغنياء البلد وارستقراطييها مدوا ايديهم بالسر والعلن لهؤلاء الشيوعيين ، من اجل حماية ظهورهم على الاقل .. ضمان خظ الرجعة لهم كما يقولون .. ترى ماذا سيحدث لو اظلمت الدنيا وتمكن الشيوعيون – لا سمح الله – من احكام قبضتهم على البلد ؟!

أما هو ، فسيظل يقاتل ضد تسطح الحياة الذي يسعى اليه الشيوعيون ، ضد تحويل السعي البشري الى ممارسات حشرية واصطراع من اجل القوت ، حيث يبدو الناس معلقين كالعناكب على الجدران والزوايا تنتظر فريستها . وحيث يزدحمون كالنمل في الشقوق والمغارات لتطمين حاجاتهم ومصالحهم ..

سيكافح واصحابه من اجل اعادة الحياة الى وضعها الحقيقي ، ومدها الى حيث يريد الله لها ان تكون .. اه لو يعرف هؤلاء يوما ان قضيّتنا ليست صراعا على هذا الهدف المنظور أو ذاك ، ولكنها محاولة للتحقق بوجود اعمق غورا ،وان ذلك لن يكون بدون كسر القشرة الخارجية للعالم والاشياء ، والتوغل الى هناك ..

وتذكر حنا جرجيس مرة اخرى .. انه واحد من أولئك المترفين ، وها هو يضع يديه في ايديهم .. ولكن قد تكون لهذا مبرراته ودوافعه .. اما الاخرون فكيف ؟

وقال في نفسه : ان ما يحدث ينقض مقولات الشيوعيين ، فالواقع اشد ثقلا واقناعا من ادعاءات الايديولوجية والتنظير .. وغداً عندما يجِّد الجد وتدق ساعة الحسم ، فان الذين سيقاتلون الشيوعيين هم الفقراء والمسحوقون .. اما المترفون فسيجلسون متفرجين على الاقل ، لكي ينظروا لِمَنْ تكون الجولة ، وبعدها فانهم مستعدون لتحصين انفسهم بالمال ازاء الفئة المنتصرة !

فما اخرجه عن افكاره المتدافعة الا حركة السيارة وهي تتباطأ لكي ما تلبث ان تستقر قريباً من الطوار عند اخر نقطة في شارع المطار في الطرف الجنوبي للدواسة ، حيث يقوم دار العقيد الشواف.

غادرها وهو يشد على يد حازم فسأله هذا :

– أأرجع اليك ثانية ؟

– ليس ثمة ضرورة ، فساجد هنا من يعيدني الى البيت ..

قرقعت السيارة ثانية وهي تستدير لكي تنطلق وسط رشقات من الدخان الكثيف ، عائدة الى البلد ، بينما تقدم هاشم باتجاه المدخل الخارجي الذي يخترق سور الحديقة من جهته الشمالية، وتحفز جنديان يقفان عند كشك الى جوار الباب لاعتراض طريقه وتوجيه الاسئلة اليه، لكنه اعفاهما من هذه المهمة بنزعه الكوفية والنظارات ..

رحبا به واشارا اليه ان يدخل ..

اجتاز حديقة واسعة تظللها اشجار السرو والصنوبر الريانة الخضراء ، كان عقرب الساعة يشير الى الساعة التاسعة والنصف مساء ، والظلام يطبق بثقله على الاماكن والاشياء، فما راى من الحديقة وهو يجتازها الى الباب الداخلي زهرا ولا ثمرا ، ولكنه شم روائح شذية يعرف ربيع الموصل كيف يركزها ويطوح بعبيرها في الاجواء ، وكيف يخفف بها حزن المحزونين ..

دق جرس الباب فما لبث ان فتح بعد لحظات.

– مقدم عبد الحميد ؟

فتح هذا ذراعيه واحتضن هاشم وهو يقبله ويمسد بيسراه على لحيته الانيقة ..

– اننا بانتظارك ايها الرجل منذ اكثر من نصف ساعة ..

– حاولت ان اتيكم في الموعد المحدد ، ولكن السيارة تاخرت علي ..

وهما يجتازان الصالة صوب غرفة الاستقبال ، اردف هاشم وهو يبتسم :

– الحق انه يتحتم علينا اذا اردنا ان نفي بمطالب قضيتنا ان نسلم بالتكنولوجيا الحديثة على الاقل ..

تساءل المقدم عبد الحميد وهو لا يدري ما الذي يعنيه :

– التكنولوجيا ؟ !

– بكل تاكيد ، فلو كانت السيارة التي ازمع شراءها تحت يدي لجئتكم في الموعد المحدد ، ولكن لا بأس فساحظى بها عما قريب ، وستجدونني معكم في اية حظة تطلبونني فيها !

❁❁❁❁❁❁

– ١٠ –

استيقظ عاصم صبيحة السبت متاخرا بعض الشيء .. صحيح انه لم يذهب في اليوم السابق الى معمل الدباغة الذي تولى ادارته بعد وفاة ابيه منذ اقل من سنتين ، الا ان القلق الذي اكتنفه ليلة امس ، بعد يوم حافل بالاحداث ، وضعه اسير ارق لا يرحم ولم يفلته حتى اطلت بوادر الفجر الاولى.

وما كانت تلك الاحداث لتهمه كثيرا لولا انها انعكست بشكل لم يحسب له أيُّما حساب على تصرفات خطيبته سلمى .. لقد احس لحظة مغادرته دار عمه ظهيرة يوم امس ان ثمة ما يتهدد حلمه الذي ظل يحرسه الشهور الطوال ، فما ان اتيح له التحقق حتى اخذ يتفلت من بين يديه ..

آه لو انها تنزع من راسها هوس الاندماج فيما تشهده المدينة .. اه لو ان حمى التحدي التي تعصف بجوارحها تنعكس محبة وحنانا .. ما لها وما يجري في البلد ؟ ولكن لا باس ، فسيحاول المرة تلو الاخرى ان ينتزعها من التيار .. ان ينقذها من الهدير المخيف اذي اختارت ان تذهب اليه بارادتها لكي ياخذها بعيدا صوب الضفاف النائية ، حيث لا قاتل ولا مقتول ، حيث تختفي لغة الرصاص ، لكي تحل محلها كلمات العشق والمحبة ..

كان عاصم قد انجز دراسته الثانوية قبل سنتين بصعوبة بالغة فقد ذاق طعم الفشل اكثر من مرة ، واضطر ان يقضي في بعض الصفوف ثلاث سنوات اتيح له خلالها ان يستقبل ثلاث وجبات من الطلبة ، يمضون الى اهدافهم ، وهو قاعد مكانه .. لا يبرح ..

لعله لم يجد التحدي المناسب الذي يعينه على الاستجابة ومواصلة الطريق بسرعة كما يفعل زملاؤه ... تحدي الفقر والمصاعب والحرمان .. لقد نشأ في بيئة غنية مترفة كانت تمنحه بسهولة كل ما يشتهي ويريد ..

واذ كان بعض زملائه لا يحظون عبر الاسبوع كله باكثر من درهم او درهمين كمصاريف شخصية ، كان هو يلعب بالدنانير وزاده دلالا انه الابن الوحيد بعد ثلاث من الاخوات سبقنه الى الوجود.

كان أبوه ذو النون الدباغ يملك معملا كبيرا للدباغة على الطريق الذاهب جنوبا صوب بغداد ، فضلا عن انه كان يملك اسهما كثيرة في عدد من المصانع والانشطة التجارية ، واذ احس بان حي رأس الكور القديم لم يعد مناسبا لسكناهم ، قرر ان يبتني قصرا كبيرا وفق الطراز الحديث الذي بدأ ينتشر في الضواحي المحيطة بالبلد ، اختار له مكانا مناسبا عند الجهة الشمالية المرتفعة المطلة على نهر دجلة ، قريبا من ابنية المستشفى العام ، وانفق عليه بسخاء.

وبعد ثلاث سنوات من العناء والجهود المتوا صلة ، انتصب القصر قائما بغرفه الفارهة ، بصالاته المتداخلة ، بمرافقه الانيقة ، بمطبخه الذي غلفت جدرانه بالصيني الابيض ، بارضيته التي فرشت بالموزاييك الملون ، وبحديقته الواسعة التي تلفه من جهاته الاربع يحيط بها سور انيق ، قليل الارتفاع ، لكي لا يحجب جمال المعمار الحديث ، الذي يميل الى التكشف والتأ نق والوضوح.

ولكن ، مهما يكن من امر هذا التقليد الحديث اذي اخذ يطوق المدينة من جهاتها الاربع، معتمدا الكونكريت المسلح والحديد ، فانه ليس بمقدور المرء ان يجد فيه ملمحا واحدا من ملامح المدينة الاصيلة ، على الاطلاق ..

كان اهل الموصل في الماضي ، اذا انهالت عليهم الثروة ، انفقوا جانبا منها على دور اكثر رفاهية واتساعا ، ولكن احدا لم يفكر يومها بان يتجاوز مقولات المعمار ذي القرنين من

العمر .. وما كان يخطر على بال احد ان يحيا بعيدا عن الجبس ، والحلان والمرمر الازرق والزخارف الغائرة ، ورطوبة السراديب القديمة المعتمة ذوات الاعمدة الاسطوانية والعقود والاقواس.

ولشد ما كان عاصم يتباهى بالدار التي اقامها ابوه ، ويدعو بعض زملائه الى زيارته هناك ، متعمدا ان يعيدهم الى دورهم بسيارة البونتياك الانيقة التي سلمه ابوه نسخة من مفاتيحها.

وما لبث الفرح ان غمر الدار الجديدة بعد سنة واحدة من الانتقال اليها .. لقد اجتاز عاصم السنة الاخيرة من الثانوية ، ونجح في الوزاري بدرجات غاية في التواضع ، لكنه حصل على البكالوريا على اية حال بعد سنوات من الانتظار واعادة المحاولة ..

اعتبر والده ذلك حدثا كبيرا وعانق ابنه وهو يقول :

– ستكون البونتياك هديتي اليك فالف مبروك ..

لكن عاصم لم يهنأ طويلا بفرحته تلك ، اذ كان عليه بعد اسابيع قلائل ان يختار الكلية التي سيكمل دراسته فيها ..

كانت فكرة مواصلة الدراسة ترهقه ، بل انها كانت تملأ نفسه خوفا واكتئابا وقلقا ، اذ كانت الدراسة المتوسطة والثانوية قد استنزفت منه الكثير ولم يُتح له اجتيازها الا بصعوبة ، واذا كان نجاحه في السنة الاخيرة من قبيل الخوارق والمعجزات ، فكيف سيتمكن من اجتياز الدراسة الجامعية التي حدثه عنها بعض زملائه الذين سبقوه فصوروها كما لو كانت جدارا هائلا يصعب تسلقه ؟

كانت رغبة ابويه ان يواصل الدراسة ، وفي كلية التجارة بالذات ، مهما غلا الثمن وارتفعت التضحيات .. فليس سهلا ان يغادر عاصم الموصل الى بغداد ، لكي يتغرب هناك السنوات الطوال ، وليس سهلا كذلك ان يبدأ الشاب ملحمة جديدة لا تقل قسوة عن ملحمة الثانوية ، ان لم تفقها عنفا وضراوة.

وبمرور الايام اصبحت هذه الرغبة اشبه بهاجس ملح يضغط على تفكير الأب ، فيدفعه الى الالحاح على ابنه لكي يواصل الطريق ، وقد وعده ومناه بالكثير ان هو استجاب للطلب ..

لكن عاصم ، وهو ادرى بقدراته، تردد كثيرا ومرت عليه ليال بطولها لم يذق فيها طعم النوم ، فليس امرا هينا ان يقدم على المجازفة ، كما انه ليس امرا هينا ان يكبت رغبة ابيه الذي وهبه كل شيء ..

فمن عجب ان يدخل القدر طرفا ثالثا كي يحسم الامر !

طرفا ثالثا ؟ بكل تأكيد ، فهو دائما معنا يرانا ولا نراه ، ويصرف مصائرنا من حيث ندري حينا ولا ندري في معظم الاحيان .. والذين يرفضون الاعتراف بهذا الطرف الثالث ، سرعان ما يدركون انه يملك ثقلا ليس من السهولة بمكان تجاهله ، او نفيه عن ساحة الوجود.

توفي ذو النون الدباغ ، وكان يعاني منذ زمن طويل متاعب في كليته ، وها هو ابنه الوحيد ، بعد ايام الحزن الصعبة ، يجابه مصيره ذا الدرب الواحد : ان يتولى الاشراف على المعمل ، وادارة ثروة ابيه ، فضلا عن ان يكون مقيما على البيت الذي غدا فجأة معيله الوحيد.

وفي طريقه اليومي الى المعمل ، عبر شارع الغزلاني ، فيما وراء المعسكر ، لمح سلمى وهي تتجه الى ثانوية الكفاح القريبة من الدار ، وكانت المسألة في المرات الاولى لا تعدو ان تكون مجرد اعجاب ، ولكنها انقلبت بالتكرار الى شيء اخر يتجاوز الاعجاب .. اتراه الحب ؟

ليس بمقدور المرء ان يصدر حكما على علاقة يمسك بها طرف واحد ، اما جانبها الآخر فيظل سائبا .. ذلك ان سلمى من جهتها لم تشعر به اغلب الظن ، ولعلَّها شعرت ولكنه ليس ذلك الشعور المُتفرّد الذي يناديها ويلح عليها : انه هو !

ومهما يكن من أمر فان عاصم لم يشأ ان يتردد هذه المرة ، وهرع الى امه لكي تحسم المسألة ..

– ولكن لم يمض على وفاة ابيك سوى عشرة اشهر ..

– انني اقدر هذا ، واعرف كلام الناس الذي لا يرحم ولكنني لا اريد اكثر من جس النبض .

– ولماذا لا نؤجل جس النبض هذا لحين اكتمال سنة واحدة على الاقل ؟

– اخشى ان تضيع مني !

– هنالك عشرات غيرها ، ولن تستعصي عليك اية واحدة منهن !

قال وهو يتشبث بالفتاة التي اعجبته :

– لكنها بالذات التي اريد !

تساءلت الام وهي تعيد شد قطعة (البويمة) السوداء على رأسها :

– هل هم في مستوانا ؟

اجاب عاصم وهو يطقطق اصابعه بشيء من القلق :

– لا ادري تماما ، ولكنني اتذكر ان اباها عبد الرحمن الشيخ داوود قد زار المرحوم والدي في المعمل مرة او مرتين ..لعلهما اصدقاء ، ولعل ..

قاطعته الام :

– مئات ، بل ألوف ، ربما كانوا يزورون اباك في معمله ، ان هذا لا يعني شيئا ..

واصل عاصم تشبثه :

– ولكنه قد يمنحنا الاشارة التي تعيننا على الوصول .

ويومها ، انقطع الحديث بين عاصم وامه بمجيء عدد من الزائرات من معارف الام ، ولكنه لم يستسلم ، وقرر ان يواصل الطريق ، ولا سيما انه رآها في اليوم التالي وهي تجتاز

الشارع ، فحدق فيها اكثر من المعتاد ، وكادت تصدر منه كلمة ما ، لكنه اضطر الى كبتها ، وما لبث ان وجد نفسه وهو يلوي مقود سيارته عائدا الى البيت.

– أماه ..

تساءلت الام عن السبب الذي عاد به في هذا الوقت ، ولم يكن قد مضى على مغادرته الدار اكثر من نصف ساعة ..

– لقد قررت ان تخطبينها لي ..

قالت وهي تنظر اليه بدهشة :

– ولكن

قاطعها بعصبية

– لن اسمح لاحد ان ياخذها مني ..

وتدخلت اخته الكبرى ، وكانت قد تزوجت منذ امدٍ بعيد موظفا يعمل مديراً للتحرير في بلدية الموصل ، ووقفت الى جانبه فمالت الكفة ..

وقالت ابتسام :

– سوف اسعى .. ان لدي عددا من الصديقات من قريباتها ، وسوف اتيك بالجواب ان شاء الله ..

طغت الفرحة على وجه عاصم ، وكاد ان يفقد اتزانه وهو يقفز قائلا :

– هكذا تكون الاخت المخلصة وإلا فلا ..

واذ وجدت الام نفسها محاصرة فيما يشبه الامر الواقع ، قالت بعد تردد :

– حاولي يا ابتسام ، ولكن ليكن الامر محصورا في اضيق نطاق ، فانه لم تمض سنة بعد على وفاة ابيك !

❁❁❁❁❁❁

– ١١ –

انطلق بسيارته البونتياك حوالي العاشرة صباحا ، فما ان قطع جانبا من شارع النبي جرجيس الذي يربط دورة المستشفى القريبة من الدار ، بشارع نينوى جنوبا ، حتى فوجيء بحشد كبير من الناس ، وباصوات تنطلق كقصف الرعد ، وصرخات تتلوى في الفضاء مصعدة ، لكي ما تلبث ان تتلاشى في المدى.

انها تظاهرة بالتاكيد ، قال في نفسه ، ورغم انه لم يشترك في واحدة منها فانه يعرفها جيدا هذه التظاهرات التي كانت تفاجأه بين الحين والحين وهو ذاهب الى المدرسة او عائد منها ..

دفقات من الصراخ الجماعي الذي يتفجر في مكان من البلد كهزيم الرعد تجيبه احيانا دفقات من الرصاص .. ثم ما تلبث الاصوات ان تقترب فتزداد وضوحا .. وهي تقترب ، كان يرتجف لها قلبه ، ويحس بخوف مجهول يدفعه الى غذ الخطى متراجعا صوب اقرب زقاق لكي ما يلبث ان يغيب مبتعدا .. لكنه اكثر من مرة ، شجع نفسه على ان يقف عند جانب من الرصيف ، ملتصقا بباب مقفل لهذا المحل او ذاك ، لكي يشهد عن قرب هذا الانسياب الخرافي المخيف الذي كانت ترافقه دائما وتتصادى معه اصوات ابواب المحلات المطلة على الشارع ، وهي تجر بعنف فتحدث صريرا حادا ..

وما اكثر ما كانت المدينة تقذف بابنائها لكي يقارعوا السلطات بصرخاتهم ،ما اكثر ما كانت تتدفق حشود المتظاهرين عبر الشارع نفسه : نينوى ، قادمة من اقصى الطرف الغربي للمدينة عند رأس الجادة ، لكي تندفع متحدية رشاشات الشرطة وسياراتهم المصفحة ، صوب شارع غازي ، منعطفة باتجاه مركزالشرطة العام حينا ، او المتصرفية حينا اخر ، وقد تقف قبالة دار الضباط ، لكي تسمع غضبها لحشود العسكريين – الذي كانوا كثيرا ما يبتسمون ويلوحون بايديهم .. لقد كانت تلك هي لغة التفاهم بين الجيش والشعب ؟ .. اما اليوم فلا يدري احد كيف سيكون الحوار.

وهو يتذكر جيدا كيف انه كان يتأرجح لدقائق – والخط الاول من المتظاهرين يقترب منه – بين الرغبة في الفرار وبين الاندماج معهم ، عَلَّه يجد هناك امنه المفقود ، لكنه كان يجد نفسه في معظم الاحيان مسمرا في مكانه ، لا يقدر على الاجتيار.

إنه قدر المدينة ان تبعث بشبابها وشيوخها لكي يجعلوا من شوارع البلد برلمانهم الحقيقي ، بعد اذ عجز برلمانهم القابع في بغداد عن ان يوصل صوتهم الحقيقي الى مسامع السلطة ..

اقترب اكثر فوجد ان من المستحيل عليه اختراق الحشود بسيارته ، ومواصلة طريقه صوب المعمل في اقصى الجهة الاخرى من المدينة.

اوقف سيارته جانبا ، وغادرها لعدة دقائق كي يتبين جلية الامر .. صفعه اول نداء : " ما كو زعيم الا كريم " ..

ينفرد رجل ما باطلاق الصرخة ، فترد عليه مئات الحناجر مرددة العبارة نفسها : " ما كو زعيم الا كريم " ..

كانت الحشود تنطلق في الشارع نفسه صوب شارع نينوى الذي يتوسط البلد ، وما لبث ان رشقته صرخة اخرى : " عيني كريّم للامام ، ديمقراطية وسلام " .. وترد عليها مئا الحناجر ، كالصدى الذي ينشطر بالتوالد الذاتي ، فيغدو النداء الواحد الف نداء : " عيني كريّم للامام ، ديمقراطية وسلام " ..

والتفت ذات اليمين وذات الشمال ، فاذا باعداد اخرى من الناس تتدفق من الازقة المجاورة ، لكي تصب في بحر الشارع الرئيسي ، فترفد الظاهرة بالمزيد.

وكان الرجل منهم اذا اراد ان يطلق هتافا استدار بظهره ، وتحرك بهدوء راجعا الى الوراء ، ورفع يديه ثم فرشهما في الهواء ، واطلق صرخته فترد عليه الحشود التي تقف قبالته بالصرخة نفسها ، وهي تطوح اذرعتها في الهواء في فورة حماس ، يجعلها تنسى عرقها اعياءها والجهد المضاعف الذي ينصب على حناجرها ، وتستبدل بهذا كله نوعا من الغبطة المتوهجة التي يمكن ان تنبثق عن احساس بالتحدي في مواجهة خطر خطر قريب.

وانطلقت صرخة اخرى اكثر قربا هذه المرة : " الموت للخونة والمتآمرين " ..ثم ما لبث النداء ان غدا الف نداء ..

وقال عاصم في نفسه : ليس لك الا ان ترجع ، فانه ليس يوما كبقية الايام ، وفكر وهو يتراجع باتجاه موقف سيارته ، ساحاول من شارع ابن الاثير عند الطرف الغربي للمدينة ، وقال : يمكن ان انزلق من هناك بسهولة الى باب الجديد فشارع الغزلاني ..

لم يكن المعمل هو الذي يناديه في حقيقة الامر ، ولكنها سلمى ، انه غير مستعد ان يقضي ليلة اخرى محاصرا بالهم والارق ، لقد كان يوم امس صعبا حقا ، وقد تقطعت عبر دقائقه المكتظة خيوط وخيوط ، وسوف اعرف اليوم كيف اعيد حبكها من جديد ، فليس هينا علي ان اجعلها تفلت مني.

وهو يفتح باب سيارته لكي يدلف اليها امسكت بكتفه قبضة قوية وجذبته الى الشارع ثانية .. التفت برد فعل امتزجت فيد الدهشة بالخوف ، فاذا به قبالة احد زملائه في الاعدادية .. صرخ : – يونس سعيد ؟!

أجاب هذا وهو يسحب عاصم الى حافة الرصيف :

– ما الذي جاء بك الى هنا ؟

وهو يسترد روعه اجاب :

– كنت في طريقي الى المعمل فاعترضتني ..

قاطعه يونس محاولا ان يضفي على نبرته الجادة طابع المزاح :

– الناس الشرفاء يحاصرون بالتآمر والخيانة والموت ، وانت ذاهب الى معملك لتنمية ارباحك؟

قال عاصم وقد فوجيء بهجومه المباغت :

– وماذا تريدني ان افعل ؟

أجاب يونس وهو يشير الى الحشود المتدفقة :

– تشاركنا يا اخي !

– بما ؟

- وتسألني ؟ باستنكار المؤامرة على الجمهورية والزعيم طبعا !

تساءل عاصم وهو يكبت انفعاله :

- اية مؤامرة هذه ؟

قال يونس بصوت متيبس :

- يبدو انك قد صببت على اذنيك شمعا .. الا تسمع الهتافات ؟ ان هناك مؤامرة كبيرة تستهدف الجماهير المسحوقة في المدينة ، وتهدد مكاسب جمهوريتنا الفتية بالخطر ..

وكمن يجد قطعة طافية من الخشب وهو يعاني من الغرق تذكر عاصم :

- انني اعرفك جيدا ، لا تهمك هذه المسائل !

قال يونس وهو يشدد على مخارج الاحرف :

- ولكنها اليوم تهمني .. ليس شريفا من لا يهتم لامر الوطن ..

طرق سمعهما صوت زخة رصاص قادمة من مكان بعيد ، وسرعان ما اجابتها زخة اخرى .. وشيئا بعد شيء ابتعدت التظاهرة متوغلة اكثر في شارع النبي جرجيس ، وابتعدت معها اصوات الحناجر الهاتفة ، ولكن واحدا منها كاد يصل الى قريب منهما وهو يتلاشى في الهواء .. وتوهم عاصم انه يسمع كلمة (حبال) ترى ماذا يقول صاحبها ؟!

وواصل يونس :

- ليس هذا يوم تنمية الارباح .. لقد خرج المال من اذنيك ام تراك كما يقول المثل : " كلما كثرت ازدادت حلاوة " ؟

قال عاصم وهو يكبت انفعاله مرة اخرى :

- ليس هذا أوان تبادل الاتهامات ..اننا لم نلتق منذ أكثر من سنتين ..اهو اسلوب لائق تستقبلني به ؟!

قال يونس :

- ولكنها قضية الشعب .. و ..

قاطعه عاصم :

- ولكنني اعرفك جيدا .. الم نقضِّ اربع سنوات في صف واحد ؟

- لم يكن يتاح لنا في العصر الملكي البائد ان نعلن عن مواقفنا ..

- ولكن الكثير من زملائنا اعلنوا عن مواقفهم ، فمنهم من اضطهد ومنهم من خسر دراسته ، لا بد لكل شيء من ثمن ..

ووجدها يونس فرصة مناسبة لكي يهاجم ثانية من الثغرة السابقة :

- انني اسلم بهذا لانك آخر من يتكلم عن اثمان الاشياء !

- ليس هذا ما اقصد.

– اتظن ان قضية الوطن سلعة تباع وتشترى ؟
– لا تحاول ان تلف وتدور .. قل لي بالضبط ماذا تريد ؟ فان امامي مشاغل تقتضي ان اسرع اليها ..
– اثمة مشغلة اخطر واهم من الدفاع عن مكاسب الجمهورية ؟ ان الشواف يتآمر على البلد ، ومن ورائه كل الرجعيين عملاء الامبريالية ..
– لا اعرف شيئا عن هذا الموضوع .. ولا علاقة لي به ..
اجاب يونس بخبث :
– وسلمى ؟
صرخ عاصم كمن لدغ على حين غفلة :
– ماذا ؟
واصل يونس بالنبرة نفسها :
– اليست خطيبتك ؟
صرخ هاشم مرة اخرى :
– لا دخل لك في هذا الامر .. ارجوك ..
– لا دخل لي ؟
اطلق ضحكة قوية وواصل :
– ليست مسالة شخصية على اية حال ..
– ماذا تقصد ؟
اجاب يونس كمن يكشف عن جريمة يحيط علما بابعادها :
– لقد شوهدت يوم امس تصلي هي ووالدها وراء هاشم عبد السلام !
واحس عاصم انه يغرق من جديد ، وتذكر ثانية ان الهجوم خير وسيلة للدفاع فقال :
– يونس .. اتذكر حادثة اعتصام الطلبة في الثانوية الشرقية قبل اكثر من سنتين ؟
اجاب يونس بصبر نافد :
– لا ترجع بنا ثانية الى الوراء ، ان الزمن يتحرك ، وإن الجماهير تتحرك هي الاخرى ، وسوف تجد انه لن يقف في طريقها شيء ..
تشبث عاصم بموقفه :
– ولكنه قضية الجماهير ايضا . ذلك الاعتصام .
– ماذا تريد ان تقول ؟
– لا شيء ، ولكني اتذكر كيف اننا ، انا وانت ، كنا اول المتسللين خارجا ، بينما ظلّ الطلبة يواصلون اعتصامهم حتى عصر اليوم التالي ..

– ذلك امر مضى عليه زمن طويل ..

– وانك انت الذي همس في اذني بفكرة التسلل من ثغرة في الجدار الشمالي .. لا زلت اذكر كيف انك بررت المحاولة بقولك ما لنا ولنوري السعيد ، لسنا نحن المكلفين باسقاطه .. تلك مهمة الجيش !

شرد يونس وهو يتصنت الى اصداء الصرخات القادمة من اماكن بعيدة ، بينما واصل عاصم :

– وقلت كذلك : ان من الجنون ان يتصور طالب ما ان بمقدوره ان يفعل شيئا ..

قال يونس بنبرة زاجرة :

– كنا يومها صبيانا بعد ، اما الان ..

قاطعه عاصم وهو يبتسم :

– الان نستطيع ان نمارس الدور نفسه ..

صرخ يونس :

– ماذا ؟

اجاب عاصم وهو يسعى الى الاحتفاظ بهدوئه قدر الامكان :

– ننسحب ونتفرج عليهم وهم يصطرعون .. انه ليس بمقدورنا اليوم ايضا ان نفعل شيئا ..

ومن اجل ان يستعيد زمام المبادرة ، عاد يونس الى الهجوم ثانية :

– تنسحب لكي تنفخ جيوبك بالمال .. اما انا فانه ليس لدي شيئا اخسره. ان انتصار الجمهورية ضروري بالنسبة لي ، وبالنسبة لكل الذين لا يملكون شيئا .. لقد وعدتهم بالكثير ، وسوف تفي بوعدها ، والذراع التي ستقف بمواجهتها سوف تكسر ..

قاطعه عاصم وهو يحس انه لم يعد قادرا على التواصل مع زميله القديم :

– ولكن ..

صرخ يونس :

– لماذا تسعى الى تغيير الموضوع ؟ لقد قلت لك ان خطيبتك واباها شوهدا ظهر امس يصليان وراء واحد من اعداء الجمهورية .. رجل دين يمتليء قلبه حقدا ..

ووجد عاصم نفسه ينزلق وراء نزعته القديمة المتأصلة :

– وماعلاقتي انا بالامر ؟

صرخ يونس مرة اخرى :

– اليست خطيبتك ؟

– هديء من روعك يايونس ، فليس ثم مبرر للصراخ ..

اشاح يونس برأسه صوب الجنوب ، كمن يحاول ان يلتقط اخر النداءات القادمة من هناك ، قبل ان تبتعد التظاهرة ، وتتلاشى الاصوات .. ثم ما لبث ان عاد لمجابهة عاصم ولكن بهدوء اكثر :

– كيف تسمح لها بالتامر على الجمهورية ؟ اليس لك تأثير عليها ؟ اما كان بمقدروك ان تكفها عن الانسياق في هذا الطريق ؟

قال عاصم متراجعا اكثر :

– ولكنها ذهبت بصحبة ابيها وليس بصحبتي !

اجاب يونس وقد بدأ يشعر انه يزداد تمركزا في موقعه :

– بصحبة ابيها او بصحبتك ، انها خطيبتك على اية حال ، وانك المسؤول عن تصرفاتها ، وقد كان بمقدورك ان تكفها عن هذا العبث ..

وتحت وطأة احساس مؤلم بالقهر صرخ عاصم :

– تجرؤ على تسمية تلك الفريضة المقدسة عبثا ؟

اجاب يونس :

– لا اعني الفريضة بالذات ، ولكنها الصلاة وراء ذلك المتآمر !

واصل عاصم منطلقا من الاحساس نفسه ، ممتزجا هذه المرة بشيء من التحدي :

– اتريد الحقيقة ؟ انني سوف اشجعها الجمعة القادمة للذهاب البالصلاة في أي مسجد تشاء حتى لو كان هاشم عبد السلام نفسه !

قال يونس بنبرة مرتجفة :

– هكذا ؟ استمر عاصم : بكل تاكيد ، ان بمقدوري ام امنعها من عشرات الاشياء .. الا هذه ..

– ولكنني اخشى ان تندم على فعلتك ..

تساءل عاصم وهو يحس بخطر ما يأتي من مكان بعيد .. زاوية مجهولة في صيرورة الاحداث .. وان زميله القديم قد يكون شيئا اخر بالكلية ، لا تربطه اية عاطفة او ذكرى مشتركة:

– ماذا تقصد ؟

أجاب يونس وهو يقفز الى الشارع مغذا الخطى لكي يلحق برفاقه المتظاهرين :

– سوف ترى ؟!

❁❁❁❁❁❁

أدار عاصم مقود سيارته وعاد ثانية عبر الشارع نفسه لكي ما يلبث ان ينعطف عند دورة المستشفى غربا ، مجتازا شارع ابن الاثير صوب راس الجادة عله يجد من هناك منفذا يوصله الى باب الجديد فشارع الغزلاني.

انه كان يتحرق شوقا للقاء خطيبته وها هو لقاؤه بيونس قد زاده اشتياقا .. لقد استيقظ صباح هذا اليوم يسيطر عليه احساس مرير بان سلمى قد تفلت منه وانه ربما سيخسرها .. ولكن هذا الاحساس بالفقدان قد تضاعف الان ..

ان ثمة قوة جديدة تتدخل هذه اللحظات .. قدر غامض يتهدده بضياع كل شيء .. وسلمى تعني بالنسبة اليه كل شيء .. فماذا لو ضاعت ، واحس انه يضغط اكثر فاكثر ودون وعي منه على البنزين ، فتزداد السيارة اسراعا فاضطر الى الابطاء بعض الشيء ، وهو ينساق في تيار من الوعي المتناقض ، لكنه استطاع ان يلتقط منه خيطا اخذ يزداد بمرور الوقت تفردا ووضوحا .. انه اذا صح ما قيل عن وجود حركة او ثورة ستنفجر عما قريب ، بمواجهة الزعيم وانصاره من الشيوعيين ، فانه يتمنى من اعماق قلبه ان تنتصر هذه الثورة .. فبدون ذلك قد يفقد سلمى الى الابد!

ولم يخطر على باله البتة المصير الذي ينتظر ثروته كلها ، المعمل والبيت والاسهم والسيارة .. الآن ، بعد ما سمعه من صديقه ، حيث قطعت الاحداث القاسية كل الروابط القديمة ، لا يفكر سوى بشيء واحد ، ان يحتفظ بخطيبته وان يأوي اليها ، في عالم يبدو انه لم يعد يحتمل ثبات الاشياء والقيم والموجودات في اماكنها.

مرق من جوار ملعب الادارة المحلية حيث عقد انصار السلام اجتماعهم امس الذي فجر كل هذه المتاعب .. ومن يدري فقد تلد الايام والساعات القادمة متاعب اشد هولا .. وسرعان ما سيطرت على ذهنه الفكرة التي حاول منذ يومين ان يقنع بها خطيبته : الرحيل الى بغداد ريثما ينجلي الموقف عن حقيقته ، وتتضح الاشياء عبر ذوبان دوامة الضباب الرمادية الكئيبة هذه والتي اخذت تلف المدينة ومن فيها بلا رحمة او شفقة ..

آه قالها من اعماق قلبه ، لو تستجيب لفكرة الرحيل هذه ، فما هي الا ايام حتى يتضح كل شيء ، ودهمه كدر خفي وهو يتذكر كيف ان سلمى ترى في الرحيل هروبا غير مبرر ولا مقبول .. وانتصب قبالته كنذير السوء شبح صديقه القديم يونس سعيد ، ترى ما الذي في نيته ان يعمل ، ام انه مجرد كلام يقال ؟ وحاول ان يطرد هذا الشبح الذي تبدى الان مجرد هيكل عظمي ، لا يكسوه لحم ولا يشده عصب ولا يجري دم في خلاياه .. هيكل عظمي يصعب التواصل معه ، بل يبدو

مستحيلا .. وكلما حاولت ان تثير فيه عاطفة ما ، او ذكرى قديمة كلما سعيت ان تحرك فيه انفعالا او شوقا ازداد تصلبا وكراهية ، وازداد تعبير عينيه الغائرتين المفزعتين حقدا ورعبا ..

واحس بشيء من الارتياح وهو ينعطف شرقا باتجاه دورة باب الجديد ، ومعنى ذلك ان شارع الغزلاني قد غدا على بعد خطوات منه ، وما هي الا ان ينطلق فيه لكي ما يلبث ان يجد نفسه ، بعد دقائق معدودات في دار عمه ..

ولدهشته لم يكد ينتبه لاثنين من الشباب المسلحين وهما يطلبان منه التوقف ، والرجوع بسيارته من حيث اتى ..

بعد لحظات فحسب ، اتيح له ان يمعن النظر في دورة باب الجديد ، وان يرى حشودا اخرى من الجماهير تتدفق صوب شارع الفاروق القديم ، قادمة من شارع الغزلاني وذي النورين والصديق، متدفقة من كل الازقة المفضية اليها ..

اتراها التظاهرة التي التقى بذيولها في شارع النبي جرجيس قد اطلت عليه برأسها ؟ لا يمكن ، قال في نفسه .. : ليس بهذه السرعة .. لكنه ما لبث ان تلقى الجواب .. لقد كانت الصرخات تقصف السمع بكلمات اخرى هذه المرة .. كلمات مغايرة تماما لما سمعه هناك،واستطاع بصعوبة ان يلتقط بعض مفرداتها : العروبة ، الاسلام ، الوحدة ، وكان يدوّم فوق الحشود نداء هادر اخذ يتردد باستمرار : سقوط الزعيم !

تناوحت المشاعر في صدره وهو يلوي مقود السيارة لكي يبعد بها قليلا عن الجماهير المتدفقة ، حيث طلب اليه الشابان المسلحان .. احس للوهلة الاولى بنشوة عارمة تغمر كيانه ، وبانه ها هنا سيعرف كيف يكون الرد على يونس ورفاقه ، وتمنى لو يلقي بنفسه في اتون الحشود ، وان يصرخ معهم ، وزاده حماسا تخيله سلمى وهي تراه من مكان ما .. مكان مجهول .. لكنها تراه على اية حال ، يقاوم ويرفض ويمارس دورا كانت تتمناه دون جدوى .. لكنه ما ان طرق اسماعه ذلك النداء المخيف بسقوط الزعيم ، النداء المدوّم فوق رؤوس الجماهير والمتلاحم مع دوامة الضباب الرمادية التي تلف المدينة والحياة والاشياء .. حتى اجفل بعض الشيء ، واحس بانه يزداد انكماشا ، وسيطر عليه لدقائق احساسه القديم ، فانه ليس من السهولة بمكان ان يلقي بنفسه في خضم اناس قد تبدت هويتهم كاملة الان : مجابهة السلطة والثورة عليها .. فمن يدري ؟ لعلهم سيساقون في وقت قريب الى مصائرهم المفجعة ما داموا قد اختاروا ان يفتحوا على انفسهم جبهتين في ان واحد الشيوعية .. والسلطة !

تراجع بسيارته عشرات من الامتار ، وتردد للحظات بين ان يمضي عائدا الى داره عبر شارع ابن الاثير ، وبين ان يقف ، عن بعد ، لكي يلقي نظرة ولو لدقائق معدودات على هذا الذي تشهده المدينة في جانبها الاخر ! وقال في نفسه : كنت افعلها قبل سنوات فلماذا لا افعلها اليوم ؟ انه ليس هينا ان استل نفسي من المشاهدة القريبة من الحدث ، وارجع لكي انزوي ممزقا في البيت

.. ومن يدري ؟ فلعل الحشود تبعد قليلا وهي توغل في شارع الفاروق ، وعندها سينكشف الطريق ثانية الى الغزلاني .. انني يجب ان التقي بسلمى هذا اليوم بالذات ، وان احكي لها عن كل شيء ..

صعد بسيارته على رصيف الشارع الخالي الذاهب غربا باتجاه المحطة ، وتأكد جيدا من اقفال ابوابها ، ويمم وجهه صوب دورة باب الجديد.

كانت الجماهير لا تزال تتدفق من كل مكان ، وكانت الصرخات الهادرة لا تزال تتفجر بين لحظة واخرى لكي ما تلبث ان تتصادى في الفضاء وهي تنشطر الى مئات النداءات .. وثمة بين وقت واخر ، كانت سيارة جيب عسكرية يمتطيها ضباط شبان تشق طريقها بصعوبة ميممة هي الاخرى شمالا عبر شارع الفاروق نفسه ، وكان الضباط يلوحون بايديهم فتجيبهم النداءات المنتشية فورة وحماسا ..

واذ اصبح على بعد خطوات من حافة الجماهير الزاحفة ، اطل برأسه يسارا فتأكد له ان مقدمة التظاهرة كانت قد توغلت بعيدا في شارع الفاروق ، واخذ يقدم رجلا ويؤخر رجلا قبل ان يتخذ قراره النهائي بالمشاركة .. فها هو الان يقف على الخط الزمني والمكاني الفاصل بين ان يكون معهم وبين ان يظلّ متفرجاً ..كان يحس انه يقف تماما عد نقطة انعدام الوزن بين الشد والجذب وما من مرة وجد نفسه ازاء تظاهرة وجها لوجه واحس بالعناء والتمزق اللذين يحس بهما اليوم وكان يكافح لكي يتشبث بما يرجح ميله صوب هذا الموقف او ذاك فما وجده بسهولة.

لقد كان خيال سلمى يستحثه على الاقدام ، على تجاوز التردد والاندماج مع الجماهير وكأنه يراها ، هناك ، تشير اليه بكلتا يديها ، تدعوه ، تحثه ، ويهمّ فعلا بان يخطو خطوته الحاسمة، فما تلبث الصرخات المطالبة بسقوط الزعيم ان تجعله يقف في مكانه مشلولا عاجزا عن الحركة .. فانه ما خطر على باله يوما ان يعرض مصيره للخطر ، ويقف قبالة السلطة وجها لوجه، وهو يعرف جيدا ما الذي يعنيه هذا ..

وما يلبث شبح زميل دراسته يونس سعيد ان يتنتصب قبالته عاريا من اللحم والدم والوجدان .. مهددا متوعدا .. فيتمنى لو يرد عليه ، لو يكسر ذراعه المتصلّبة كالحديد البارد .. لو يقنع هذه الجماهير المتشبثة بحماية الايمان والمحبة من الدمار والتفكك ، الساعية لوقف المأساة القريبة على بعد امتار : تجريد الانسان وتحويله الى هيكل اصم متشابه ، صلب العظام ، بارد كالفولاذ لو يقنعها بان تمضي معه صوب التظاهرة القادمة من الجهة الاخرى ، لكي يبحث عن زميله القديم ، فيحطم جمجمته قبل ان يقع المحذور !

وعلى حين غفلة شعر كما لو ان الحركة الانسيابية للجماهير الموغلة في شارع الفاروق قد تعرضت لهزة ما .. لنوع من الارتباك .. وطرقت سمعه نداءات واصوات اخرى ، بايقاع اخر غير الذي اعتاده .. وعبثا حاول ان يمد عنقه باتجاه النهايات القصية للشارع لكي يعرف ما الذي حدث

على وجه التحديد ، وكل الذي استطاع ان يلتقطه بصعوبة منظر السنة من النار ودفقات من الدخان الاسود الكثيف تندفع من مكان ما هناك على يمين الشارع ..

ما الذي يجري هناك ؟ ارتفعت التساؤلات من هذا الرجل او ذاك .. ما الذي يجري هناك ؟ تساءل هو الاخر ، فما من احد قدر ان يخمن ، ثم ما لبثت زخات من الرصاص ان فرقعت في مكان ما في البلد ، فاجابتها زخات اخرى.

ولدقائق توقف اندفاع التظاهرة ، واحس عاصم كما لو انهم تسمروا في اماكنهم لساعات .. وقال في نفسه : قد يكون الامر اخطر بكثير مما اتصور .. وجرفه حنين لا يقاوم في ان يكون هذه اللحظة آمنا في بيته ، بعيدا عن هذا اللعب المخيف بالاعصاب ولكن كيف ؟ وها هي رشقات الرصاص تنصب هناك ، شمالا ، في مكان ما قد يجعل من الصعوبة بل من المستحيل ان يرجع ثانية الى البيت .. ومرة اخرى تذكر سلمى ، وتمنى لو تنفتح ثغرة في باب الجديد لكي يمرق منها بسيارته صوب شارع الغزلاني ، فيأوي الى دار عمه ، وينتظر هناك حتى تتكشف الامور على مداها .. وخاطب نفسه كمن يؤنب طفلا صغيرا : ما الذي جاء بك الى هنا ؟ اما كان الاولى ان تقفل عائدا لحظة لقائك بذيول التظاهرة الاولى ؟ وسيطر عليه احساس ثقيل بانه قد لا تتاح له العودة الى داره ابدا ، وان الخوف سيحيط به من كل مكان ، وانه ليس بخارج منه ..

وسرعان ما خطر له ان ينسحب قليلا باتجاه شارع الصديق لكي يكون بعيدا عن ردود الفعل التي قد تزداد انفجارا بعد لحظات ، قريبا من سيارته الجاثمة على الرصيف .. واحس بشيء من الارتياح لهذا الخاطر ، واستعاد شيئا من هدوء اعصابه وهو يتراجع ، دون ان يجعل احدا يحس به، صوب شارع الصديق ، وعندما انفصل تماما عن الكتلة البشرية التي كان قريبا منها ، نظر قليلا فتاكد لديه بانها بدات تتحرك ثانية ، وانها تستعيد الان انسيابها في شارع الفاروق .. وتذكر لدهشته ان هناك شارعا خلفيا يحاذي المحطة ، يمكن ان يقوده بامان الى الغزلاني .. ولكنه قال في نفسه : سانتظر قليلا ، وبعدها ساقرر فيما اذا سارجع الى البيت او امضي الى دار عمي ..

وتذكر الفكرة الملحة التي سيطرت عليه عبر اليومين الاخيرين ، فمال الى الموقف الثاني وتشبث به .. يجب ان اقنعها بالرحيل الى بغداد .. يجب ..

كانت الساعة تشير الى الثالثة الا ربعا مساءا ، عندما دق الجرس في دار عبد الرحمن الشيخ داود ... هرعت سلمى لكي تفتح الباب الخارجي مجتازة درج الشرفة الضيقة المطلة على الحديقة المتواضعة ..

- عاصم ؟

خطا هذا نحو الداخل ، ووقف للحظات لكي يستمريء احساسا لذيذا بالامان كمن يلقي مرساته بعد ساعات من الصراع مع الموج والعاصفة ... وتنفس بعمق وهو يقول :

– سلمى ، ان يوما من الفراق ليعني عندي قرنا من الزمن اجابت وهي تبتسم مخفضة عينها:

- ها قد عدت الى مبالغاتك !

- ولكنه ليس يوما كالايام !

حدق في عينيها فما رآهما يوما اعذب ولا احلى من هذا اليوم .. بحيرتان عميقتان كانتا فيما مضى تشعان حبا وحنانا .. اما اليوم ، وسط الدوامة التي تلف المدينة من اقصاها الى اقصاها فانه يلمحهما تفيضان توهجا ..

– سلمى .. ناداها بصوت خفيض ..

فرفعت اليه عينيها قليلا بما جعله يزداد حرصا على الحياة وتشبثا بها ..

– انني خائف يا سلمى .. ان ما ستشهده المدينة عبر الايام ، وربما الساعات القادمة لمخيف حقا ..

واذ كان العشق يدفع بعض المحبين والهائمين الى الموت والشهادة ، كان يجرف عاصم بالاتجاه الاخر ، محبة الدنيا والتشبث بها.

- ولكن اية حياة هذه التي تجعلنا نخاف ؟

تساءلت سلمى ..

أجاب دون ان يحس باي قدر مما قد يعتبر في مواقف كهذه خجلا او عارا :

– معك انت ، فانها اثمن من ان يضحى بها ..

ومرة اخرى اعادتها كلماته الى المها القديم .. مرة اخرى بدات تحس بانه يمسك بنصل حاد لكي يقطع الحبال التي تشد الجسر المتأرجح .. اما هو فقد وجد نفسه يندفع ، بعد المعاناة التي عاشها ضحى اليوم لساعات طوال ، في رد فعل جارف تجاه كل ما هو جماعي .. كل ما يتحرك في حيز الناس .. تجاه زمن الاخرين ومكانهم .. انه الان يتمنى ان يظل معها منفردا ، ان يذهب معها وحيدين .. ان يرحل الى اقصى مكان ، تاركا وراءه المدينة والزمن والمكان ، مخلفا التظاهرات والاصوات المدوية ، والمقاهي المحترقة ، وزخات الرصاص ..

وسمعها تقول وكأنها تقف في الحافة الاخرى من العالم الذي يتوق اليه :

– أنا وأنت ؟ اليس كذلك ؟ والاخرون ياعاصم ؟ !

أجاب وهو يحس بان اجنحة النشوة اخذ يتطاير منها الريش ، وانه قد يهوي عما قريب :

– دعيهم يدبرون امرهم بانفسهم ، وتعالي لكي ندبر امرنا معا ..

– اندعهم يحاصرون ، ويتعذبون ، وقد يقتلون وتقطع ايديهم وارجلهم .. ونهرب ؟

– أي حصار هذا واي عذاب ؟ ان الضباط الان يتحفزون الان للثورة على الوضع كله ، وقد رجحت الكفة ، ولن يكون بمقدور احد بعد اليوم ان يحاصر الناس او يقتلهم ..

– وهل انت على يقين من ذلك ؟

قال وهو يحس تماما انه ليس ثمة يقين ولكن قد يقرّبها ذلك منه .. قد يعيدها ثانية اليه ، قد يمهد الطريق لكي يقول ما جاء من اجله ..

– بكل تاكيد ..

ثم نظر اليها لكي يرى وقع كلماته على خارطة وجهها المعبر ، ثم واصل :

– فماذا يعني بقاؤنا هنا سوى انه نوع من الفضول .. ان الضباط هم الّذين سيحسمون الموقف ولن نزيد او نننقص في الميزان شيئا ؟ ..

آلمها كلامه كما تعودت في الايام الاخيرة ان تتألم ، وكان قد سيطر عليها منذ صلاة يوم امس احساس غامر ممتليء ، نشوان ، بانه يتحتم على الانسان رجلا كان ام امرأة ، ان يتخذ موقفا .. ان ينتمي لجهة ما ، موقع محدد متميز على خارطة الحياة الدنيا ذات المسالك المتشعبة ، ان يحمل عقيدته ويجابه بها العالم !

وها هو خطيبها يجيء من اقصى المدينة لكي يطلب منها ان تتخلى عن هذا الاحساس الذي منحها – ربما لاول مرة – قيمة كبيرة تليق بها كامرأة تنتمي لسلالة طويلة عريقة من النسوة اللواتي قارعن بكلمات الله مكائد الشيطان ، وجابهن بسلاح الايمان اضاليل الكفر والتفكك والرذيلة، وها هي ذي الفرصة قد حانت لكي تحصل على هويتها ، وتنطلق في الطريق الطويل الى غايته .. لقد علمها هاشم عبد السلام قبل يوم واحد بانها ليست اقل من الرجل ، وانه ليس بالخبز ولا بالحب وحده يحيا الانسان.

قالت بصوت يرتجف انفعالا :

– ومن يكون وراءهم اذن ؟!

– هكذا ؟

قال عاصم بصوت لا يكاد يسمع .. من يكون وراءهم ؟ وتذكر انهما بقيا اكثر مما يجب على الممر المفضي الى الدار ، وان عمه قد يتساءل عن هذا التأخر .. وانتهزها فرصة لكي يغير وجه الحوار ، علَّهُ يجد في عمه سندا لما جاء يسعى من اجله ، فيعيد الكرة ..

قال مبتسما :

– لقد اطلنا الوقوف هنا ، لعل اباكِ ينتظرنا ..

لم تجبه ، وفسحت امامه طريقا ودلفت في اعقابه ..

كان عبد الرحمن قد سئم الاستمرار في مطالعة كتاب عن تاريخ الاستراتيجية في العالم، فوضعه جانبا ، وراح يقضي الوقت في تنضيد خرز مسبحته الحمراء.

– ما وراءك يا عاصم ؟

قالها وهو يشير على صهره ان يجلس قريبا منه على الاريكة التي تمتد لكي تحيط بالصالة الداخلية من جهاتها الاربع ، يتصدرها خط من الوسائد المتراصة ..

– اشياء كثيرة يصعب وصفها ..

ارتمى على الاريكة بجوار عمه ، وهو يفك قليلا ربطة عنقه لكي يتنفس بسهولة اكبر.

تساءل عبد الرحمن :

– هيا بنا اذن فان بيننا وبين الافطار ساعات طوال احب ان اقضيها في السماع ..

وقبل ان يجيب عاصم واصل عبد الرحمن :

– لقد غادرت الدار ضحى اليوم لكي اتمشى قليلا ، فلم تسعفني قواي على ان اواصل الطريق الى باب الجديد ، او أي مكان اخر وسط البلد .. ان الانسان اذا جاوز الستين تحتم عليه ان يوقع تعهدا بالاقامة الجبرية ، اليس كذلك يا سلمى ؟

كانت سلمى قد تركت الصالة صوب المطبخ لكي تعد طعام الافطار ، لكنها ما ان سمعت اسمها على لسان ابيها حتى هرعت ثانية الى هناك ، كان القلق يستفزها من الداخل فلا يدعها تستقر على حال ..

– ماذا يا ابي ؟

– لا شيء .. قال عبد الرحمن ، ثم اردف : ان لدى عاصم اشياء كثيرة الا تودين ان تسمعي ؟

اجابت :

– ومن للطعام ، ولم يتبق على موعد الافطار سوى ساعتين فحسب ؟

قال الاب وهو يعود الى تنضيد خرز مسبحته :

– لا .. هناك وقت كاف .. اجلسي .. ووجد عاصم ان الوقت قد حان لكي يعرض مشاهداته الحافلة عبر هذا اليوم ، ولكي ينفذ بعدها الى اقتراحه بعد ان يكون قد مهد الطريق وكسب عمه ..

– ان البلد يقف الان على فوهة مدفع ، كما يقول المثل ..

– هكذا ؟.

قال عبد الرحمن وهو ينصت باهتمام ..

وواصل عاصم :

– ولا يدري احد كيف ستجري الامور عبر الايام ، وربما الساعات القادمة .. لقد شاهدت بعيني تظاهرتين كبيرتين هذا اليوم !

قال عبد الرحمن وهو يعقد خيط المسبحة :

– هذا ما كنت اتوقعه ..ولكن اين ؟

– احداهما في شارع النبي جرجيس تنادي بحياة الزعيم ، والاخرى في شارع الفاروق تهتف بسقوطه !

تحفزت سلمى لكي تقول شيئا .. تسأل او تعلق او تضيف ، لكنها آثرت الصمت.

وقال عاصم :

– ليس هذا فحسب ، ولكني رايت مقاه تحترق وسمعت رشقات الرصاص تتحاور بلغتها الخاصة !

تساءل عبد الرحمن وهو يتراجع لكي يتكيء على الوسادة :

– وهل حدث صدام بين التظاهرتين ؟

– لا ادري على وجه التحديد ، لعل زخات الرصاص كانت ايذانا بهذا الصدام .. كنت اقف قريبا من دورة باب الجديد ، وكان بمقدوري ان اتوغل لمعرفة ما يجري هناك في المقدمة ، ولكنني قلت : ان صوت العقل يلح علي بالانسحاب وعدم التهور .. وانت تعلم ياعماه ان المرء في مثل اوضاع كهذه يتحتم عليه ان يستجيب لنداء العقل .. لقد شبعنا من العواطف !

ومن حيث انه اراد تسوية الطريق لطرح اقتراحه ثانية بالرحيل الى بغداد ، دفع خطيبته الى اقصى الطرف الاخر ، ومارس الخطيئة نفسها التي ظل يمارسها منذ ايام .. اما عبد الرحمن فتساءل :

– اذن فالوضع خطير ..

– باكثر مما تتصور .

– واللواء الخامس ؟

اصبح معروفا انه سيفعل شيئا ، سيتحرك ، سيتخذ موقفا.

قال عبد الرحمن بانفعال :

– لقد ديس عليه باكثر مما يجب ، ولن يكون رد الفعل بعيدا ..

– بل هو اقرب مما نتصور جميعا ..

تراجع قليلا لكي يتكيء هو الاخر على الوسادة :

– وثمة ما يقال ان هناك محاولة لا لقاء القبض على كبار الشيوعيين وانصار السلام ومؤيدي سياسات الزعيم ..

غمرت وجه عبد الرحمن موجة من الاهتمام ، وقالت سلمى :

- ليتهم يفعلون ..

وكأنما ذكرت خطيبها بشيء ، فالتفت اليها قائلا :

- بالمناسبة ، فان احد زملائي عاتبني ظهر هذا اليوم ..

- على أي شيء ؟

- قال بأنك شوهدتِ تصلّين يوم أمس وراء هاشم عبد السلام ..

تساءلت بانفعال :

- ومن هو هذا الزميل ؟

- لا يهمنا ذكر الاسماء انما اردت ..

قاطعته :

- كيف ؟ لابد ان يكون منهم ..

- منهم ؟

- شيوعي ، ملحد ، يستفزه ان يرى جماهير الناس تؤدي الصلاة ..

- ليس هذا ما استفزه ولكنه هاشم عبد السلام ..

- بل ان الصلاة .. صلاة فتاة في مسجد جامع هي التي استفزته .. انهم يعتبرونه تحديا .. ومن يدري ، فلعلهم اذا اتيح لهم الانتصار ان ينفذوا تهديدهم المعروف بالا يبقوا في الموصل منارة واحدة يرتفع منها النداء الى الله.

قال عاصم محاولا ان يحتفظ ببروده :

- على اية حال فانه ليس هو الذي رآك .. ولكنه خبر نقل اليه ..

- الامر سواء .. ولكن كيف تبيح لنفسك ان يدس غريب انفه في تصرفاتي الشخصية ؟

- قال لي ساخرا : اليست خطيبتك ؟ ان ..

قاطعته بعصبية :

- وسكتّ على استفزازه ؟

أراد عبد الرحمن ان يتدخل لتهدئة ابنته ، لكن عاصم وجدها فرصة مناسبة للدخول في الموضوع الذي جاء من اجله :

- انني خائف ياسلمى .. خائف عليك وعلى ابيك ..

صرخ عبد الرحمن وكأنه قد بوغت :

- انا ؟

أجاب عاصم وهو يربت على كتفه :

- لقد شوهدت انت كذلك تصلي وراء هاشم عبد السلام

قال محتدا وهو يطوّح بيده :

- يا للسفلة ، ولكن مهلا ، فسيعرف الشواف وصحبه كيف يلقنونهم الدرس الذي يستحقونه.

اجاب عاصم متحفزا :

- من يدري ؟ فان الدولة كلها تساندهم ، ولن يأمن احد شرهم بحال ، وبدلا من تعليق الرجاء على توقعات لايعرف احد مجراها ومنتهاها ، فان الحل يكمن بايدينا نحن !

قالت سلمى بشيء من السخرية :

- صوت العقل ..

اجاب عاصم محاولا ان يكتم غضبه :

- بكل تاكيد.

وتساءل عبد الرحمن :

- ماذا تقصد ؟
- ما قلته لكم يوم امس .. الرحيل ..
- الى اين ؟
- العاصمة طبعا ..

وواصل وهو يتشبث بفكرته :

- خمس ساعات من السفر تضعنا هناك آمنين مطمئنين .. وما هي الا ايام حتى ينكشف كل شيء ، وحينذاك يكون بمقدورنا ان نعود ..

قالت سلمى بعصبية :

- والموصل ؟
- لسنا مسؤولين عنها .. ان للبيت ربا يحميه .. عماه .. ان الامر بيدك ، وان مسؤولية سلمى تقع على عاتقك .. انني خائف عليكما بعد الذي شهدت وسمعت .. وما سيأتي سيكون أشدّ هولا ..

نظرت سلمى الى ابيها بتوسل .. انه يستطيع بكلمة منه ان يرغمها على الاذعان لهوى خطيبها ، لإثرته التي يحاول ان يزينها بديكور العقلانية ، والتي انكشفت الان فتبدت على حقيقتها اكثر من اية فترة مضت. وقالت في نفسها : هل العقل يأذن بأن يتخلى الانسان عن اهله ووطنه اذا ما دهمه الخطر ؟ ونظرت الى ابيها بعينين ضارعتين مرة اخرى ..

وكان عبد الرحمن يدرك تماما ما يعتمل في نفس ابنته ، وغرّته للحظة الفكرة التي عرضها صهره ، ولا سيما بعد حديثه عما يقال عنهما ، وعن مسؤوليته عنها ، ولكن سرعان ما تبدى له الموقف على حقيقته .. ان ابناء البلد المؤمن سيقفون جميعا غدا ، او بعد غد مدافعين عن ايمانهم .. شبابا ورجالا ونساءا وشيوخا ، وسيقف الضباط في المقدمة ، واضعين ارواحهم

على اكفهم بمواجهة رعب الشيوعية وطغيان الزعيم .. وهو ضابط قديم ، ان شرفه يحتم عليه ان يقف مع اخوانه متحديا .. الا يهرب على الاقل ! فرك مسبحته بعصبية وهو يقول :

– كلا .. لن ارحل الى بغداد !

فمن فرح تتخلله شرايين مترعة حزنا وتضحية وفداء تحدرت دمعتان من عيني سلمى ، وظلتا معلقتين هناك بين الاهداب الطويلة السوداء ..

وقال عاصم في نفسه وهو ينكمش ازاء موقف هو اكبر بكثير مما توقعه :

– لشد ما يزيدها الحزن عذوبة وحلاوة ، ولكنني خائف عليها !

وعرفت سلمى انها الان تاخذ مكانها على خارطة اخرى غير الخارطة الشخصية التي نشرها عاصم بين يديها .. خارطة تمتدّ خطوطها وانحناءاتها .. وتمتد .. لكي تحتضن العالم كله ، والعقيدة والانسان .. وانها الان ، اقرب الى الله من اي وقت مضى ..

واخرجها من افكارها صوت ابيها وهو يقول :

– الان حان الوقت لكي تذهبي الى المطبخ فتعدي لنا طعام الافطار ..

وهي تغادر الصالة ، التفت الى عاصم وهو يمسك ذراعه ..

– ستأكل معنا هذا المساء ، وستذوق من طيبات سلمى ألواناً اخرى ..

– ولكن

وقبل ان يتم كلامه طرق سمعهما عبر النوافذ والابواب نداء من مكبرة صوت يبدو انها قد ربطت الى سيارة جيب عسكرية ، كانت تسير متأنية وهي تردد ندائها بمنع التجوال منذ الساعة السابعة من مساء هذا اليوم.

نظر عاصم الى ساعته فوجد عقربها يشير الى الرابعة الا عشرين دقيقة ، فنهض قائما وهو يقول :

– اجدني مضطراً للعودة الى البيت قبل ان يبدأ المنع ، فمن يدري كم سيطول ؟

قال عبد الرحمن وهو ينهض كذلك :

– ولكن الا يمكنك ان تبقى معنا ؟

اجاب عاصم وهو ييمم صوب باب الصالة :

– ليس هذا وقتا مناسبا للبقاء ، سازوركم في فرصة اخرى .

وبعد اقل من دقيقة ، كانت سيارته تئز وهي تنساب عبر شارع الغزلاني باتجاه باب الجديد !

❁❁❁❁❁❁

- ١٤ -

كان حنا جرجيس يتناول غداءه متاخرا عن موعده عندما طرق الباب .. تساءل عمن يكون وقد مضى اكثر من نصف ساعة على اعلان منع التجول ، وصاح وهو يزدرد بصعوبة لقمة من (عِرْق) كان قد اخرج من التنور لتوه :

- من ؟

أجاب صوت من الخارج :

- انا !

من يكون ؟ تساءل مرة اخرى وقال لابنه البكر سليم :

- افتح.

لكنه ما لبث ان نهض قائما وهو يقول :

- لا ، سافتح انا ..

فوجيء بضابط شاب برتبة ملازم ، يقف عند الباب ، يحيط به جندي وعريف وهما يحملان غدارتيهما ..

في لحظة كالحلم ، حيث تتميع الصور وتفقد الاشياء صلابتها ، نسي حنا التسلسل الزمني للاحداث .. الافعال وردود الافعال .. ما يمكن وما لا يمكن .. بل انه نسي – حتى لماذا يطرق عليه ثلاثة من العسكريين الباب ، وقال بامتعاض :

- ليس هذا الوقت مناسبا ، كنت اتناول غدائي ..

اجاب الضابط الشاب وهو يبتسم :

- سندعك تكمل غداءك فلا بأس ..

تساءل حنا بالامتعاض نفسه :

- يعني ؟

قال الضابط :

- يعني ان هناك امرا بالقاء القبض عليك !

احس حنا بارتخاء في مفاصله ، بان قلبه يدق حتى لتكاد تسمع دقاته .. انه لم يعتد موقفا كهذا طيلة حياته ، بل انه غير مستعد للتعامل معه ابتداءا ، وتساءل بصوت مكتوم :

- لماذا ؟

اجاب الضابط :

- ليس هذا من مهمتنا ..

- ولكنني احب ان اعرف.

- ستعرف فيما بعد .. هيا ..

واستمد من ضعفه قوة مفاجئة ، وقال رافعا صوته بعض الشيء :

- لن اتحرك خطوة واحدة ان لم اعرف السبب !

اجاب الضابط وهو لا يزال يحافظ على هدوئه بصعوبة :

- ثمة امتار قليلة تفصلك عن الجواب ..

كان دار حنا جرجيس يقوم في زقاق جانبي قريب من برج الساعة التابع لكنيسة اللاتين والذي يتوسط البلد .. وهو يفضي بعد مسافة قريبة من موقع الدار الى شارع نينوى الرئيسي.

وحاول حنا ان يتجاهل ما قاله الضابط ، وتساءل في محاولة منه لكسب الوقت :

- كيف ؟

قال الضابط :

- ان عددا من رفاقك ينتظرونك قرب الشارع ، فلا تضيع الوقت هكذا ..

صرخ حنا وهو يندفع دون ارادة الى خلفية الحلم الذي تتميع فيه الصور ، وتفقد الاشياء صلابتها :

- رفاقي ؟!

وبصعوبة بالغة استل نفسه من هناك ، وكافح لكي يرجع ثانية الى لحظة الوعي الصافي، حيث يعرف الانسان اين هو من الزمن والمكان .. وتساءل مرة اخرة ولكن بصوت اكثر هدوء :

- اي رفاق ؟

اجاب الضابط :

- هذه ايضاً ستعرفها بعد لحظات.

كان حنا يعرف ، ربما اكثر من غيره ، ان ثمة اشيا ء كثيرة تجري في المدينة ، بعضها مكشوف واكثرها غامض مُتخفٍ .. وان ما يشبه الصراع على كرة الركبي تجري بين فريقين متكافئين في القوة ، وان أيا منهما لا يستطيع ابقاء الكرة في يده طويلا .. اتراها استقرت عندهم الان ؟ قال في نفسه .. وحاول ان يسلك الطريق الاقصر للدفاع عن نفسه ، فثمة طريق اخر قد يلجأ اليه إذا حزب الامر ..

اقترب اكثر من الضابط وهمس في اذنه :

- ولكنني لست منهم !

اجاب الضابط هامسا هو الاخر :

- هذا ما نرجوه ، ويمكنك ان توضح ذلك هناك.

واصل حنا تشبثه.

- اين ؟

لم يجب الضابط :

- ولكنني لست منهم بكل تأكيد .. اتريد الحقيقة ؟

لم يجب الضابط ايضا ..

- لقد ارغمت على حضور مؤتمر انصار السلام، وكنت مثلكم اداة فتنة ما كان احرى تجنيب المدينة ويلاتها ..

نظر اليه الضابط شزرا ولم يجب ..

- اما مؤتمر ماركوركيس فلم يكن سوى ..

صرخ الضابط مقاطعا :

- انهم ينتظرون عند الشارع ، فلا تضيع الوقت ، ان امامي مهام اخرى ، وها هو النهار يدلف - كما ترى - صوب نهايته ..

وفجأة تذكر هاشم عبد السلام ، وقال في نفسه : لعله يشفع لي عندهم ، فان بيننا زمالة عمرها سنوات طوال .. لكن موجة من الاكتئاب ما لبثت ان صفعته وهو يتذكر لقاءهما الاخير، لقد قطع بنفسه الخيط ، وكان احرى به الا يفعل ..

وهو يهم بالتقدم صوب الباب ، تذكر الطريق الاخر لحماية نفسه من الاذى ، وان كان يبدو انه ، في هذه اللحظات بالذات ، اصبح غير ذي شأن ! وقال بنبرة ذات مغزى :

- وهل يتم هذا بعلم الزعيم ؟

صرخ الضابط :

- ماذا ؟

وتحفز العريف والجندي كمن يتحصن ضد هجوم مباغت ..

اجاب حنا متشبثا بالخيط الاخير :

- السيد رئيس الوزراء .. اترى هذه المسائل تجري بعلمه ؟

نفد صبر الملازم ، واشار الى مرافقيه بعصبية ..

فبأعقاب رشاشتيهما دفعا حنا دفعا صوب الباب .. ونادى هذا اهله :

- لا تقلقوا علي فساعود قريبا ..

وهرع الملازم صوب الزقاق يجتازه بصعوبة ، ومن ورائه حنا يحيط به المسلحان حتى اذا افضى بهم الى الشارع ، وجدوا هناك سيارة (لوري) كبيرة مسيجة بمشبك من الحديد المتقاطع ومصبوغة باللون الاخضر الداكن ..

انها سيارة خاصة بنقل السجناء .. قال حنا في نفسه .. اتراني اكون منهم ؟

- اصعد.

قال له العريف ، بينما قفز الملازم الى جوار السائق وسمعه يقول له :

– شارع موسكو !

أزّت السيارة وهي تنعطف عند دورة الساعة القريبة لكي تبتعد في شارع الفاروق الجديد باتجاه الشمال ، والتفت وراءه صدفة فلمح مقهى محترقا عند رأس الفاروق القديم .. لقد احرقوه اذن ! قال في نفسه .. وتذكر جلسته الطويلة مع اصدقائه في الاماسي هناك ، وحوارهم اليومي حول الجمهورية ، والديمقراطية ، والرجعية ، والزعيم ، وحماية مكاسب الثورة ، لكنه ما لبث ان خرج عن افكاره وهو يكتشف قبالته احد المعتقلين ، ودونما ارادة منه صرخ :

– أنت أيضا ؟!

ربت العريف على كتفه ، وهو يبتسم ، فادرك حنا مغزى حركته فسكت .. ونظر مرة اخرى عبر المشبك الحديدي ، فراى الشوارع خالية الا من مسلحين منتشرين هنا وهناك عند المفارق والاركان .. بعضهم كان عسكريا ، وبعضهم مدنيا ، وراح يقارن بين هذه الشوارع المهجورة وبينها قبل ساعات فحسب عندما انطلقت التظاهرات الحاشدة ، حيث لم يتبق موطيء قدم ، وحيث كان هو يحس بأمانٍ لذيذ وهو ينحسر وسط مئات من رفاقه ، ينادون معا بحماية الجمهورية وسحق اعدائها .. اما الان فماذا تبقى ؟! ووجد نفسه يعود مرغما الى التيار الذي يتدفق في اعماق قلبه ، الى لحظة حلم اخرى تتميع فيها الصور ، وتفقد الاشياء صلابتها ، ويضيع الانسان فلا يعرف اين هو في الزمان والمكان ، ولكن حنا يتشبث ويكافح من اجل ان يعود الى لحظة الوعي الانقى رؤية والاشد ادراكا وقدرة على الامساك بالاشياء.

ولَجّت السيارة في شارع فرعي الى اليمين .. عريض نسبيا ، هنا حيث يحلو للشيوعيين ان يطلقوا عليه " شارع موسكو " كان يقطن عدد من انصار الجمهورية وابناء الزعيم كما كانوا يسمون انفسهم .. وهنا ايضا تمكن التنظيم من احكام قبضته ، وسعى جاهدا لجعل الشارع بازقته الملتوية كالافاعي ، ودوره الصغيرة المتراصة ككتل حجرية لا تعرف النظام ، مقفلا للشيوعيين وحدهم وكانوا يستمدون القدرة على مواصلة سعيهم ذاك من وجود زعيمهم عبد الله الجزار ، قريبا منهم.

وخلال لحظات بدا لحنا انه يمسك باطراف الصورة ، وانه اصبح قاب قوسين او ادنى من ادراك ما يجري على حقيقته ومداه ..

وبين وقت واخر كانت السيارة تقف ، حيث يقفز الملازم ومرافقاه تاركين السائق وثلاثة من المسلحين بينهم نائب ضابط ، لحراسة السيارة ، وما يلبث الملازم ومرافقاه ان يختفيا في الدروب الملتوية ، لكي يظهروا ثانية بعد دقائق وبصحبتهم واحد من المقبوض عليهم.

كان يعرفهم جيدا ، واحدا .. واحدا هذا كان يقف الى جواره في الشرفة المطلة على ساحة الملعب البلدي ، وهو يلقي كلمته في انصار السلام ، وهذا بذل جهدا فائقا في دير

ماركوركيس لصياغة القرارات التي تدعم الجمهورية ، وتندد بالمتآمرين ، وهذا كتب برقية تلتهب حماسا ، طيرت قبل يوم واحد الى الزعيم ، مباركة خطوته المحبة للسلم العالمي ، داعية اياه ان يفتح عينيه جيدا على ما يراد به وبثورته ..

وعند مدخل احد الازقة المفضية الى الشارع ، اطل يونس سعيد عتاله ، بوجه يقطر صفرة واطراف سائبة لا تكاد تستقر على حال .. وحنا يعرفه جيدا .. التقى معه اكثر من مرة في مقهى المكاوي عند ناصية شارع موسكو ، وشهده اليوم يطلق حنجرته وسط مئات من المتظاهرين ..

حاول ان يصعد متشبثا بحافة السيارة الخلفية فلم تسعفه قدماه ، ورآه العريف فاعانه على الصعود ..

لبث لحظات واقفا وسط السيارة ، ثم ما لبث ان انعطف يمينا وجلس الى جوار حنا.

– اهلا ..

قال له هذا بصوت خفيض ..

حدق فيه يونس بعينين مفرغتين ولم يجبه ..

واصل حنا وهو يستمد من هلع زميله رد فعل منحه قدرا من الشجاعة :

– يونس ؟

خرج اخيرا عن صمته لكي يتوسل اليه :

– اصمت فانهم يسمعون كل ما نقوله ، وقد يحسبونه علينا ..

لم يكترث حنا رغم نبرة التوسل الواضحة في كلمات يونس ، وتساءل بصوت لا يكاد يسمع :

– ترى ما الذي سيفعلونه بنا ؟

ازدرد يونس ريقه بصعوبة ولم يجب.

واذ ادرك حنا الا جدوى من المحاولة ، اعتصم بالصمت هو الاخر.

وعندما استدارت السيارة عائدة بهم عبر الشارع نفسه ، منعطفة بعدئذ يسارا صوب شارع الفاروق ، كان الغسق يخيم على الاماكن والاشياء ، وكان حنا يحس اكثر فاكثر انه يختنق كآبة وبؤسا .. واذ مرقت السيارة قريبا من برج الساعة في طريقها الى باب الجديد ، تذكر بيته الذي يقبع في زقاق قريب ، وقال في نفسه : من يدري ؟ واعتراه احساس بالشجن .. بالاشفاق على النفس ، بالحزن الذاتي الذي يخيل للانسان – احيانا – انه قد مات فعلا ، او انه في طريقه الى الموت ، فينشطر على نفسه ، ويشارك اهله البكاء بمرارة على الشطر الذي مات!

وعلى الجانب الايمن ، حيث ينفتح شارع نينوى ، للحظات على الافق الغربي للمدينة ، كانت السماء تقطر دما ، واراد حنا ان يخرج قليلا من البئر التي يغوص فيها ، فهمس في اذن يونس :

– تحدث ، قل اي شيء .. ارجوك .. فانني اكاد اختنق ..

نظر اليه يونس بامتعاض ، وقال بشيء من العصبية :

– لن يخرجنا الحديث من الكارثة التي نساق اليها .. انظر اليهم .. اترى احدا منهم يتحدث الى الاخر ، ثم ان كلامنا سيحسب علينا ، الم اقل لك ذلك قبل قليل ؟

كانت السيارة قد اكتظت بالمقبوض عليهم .. رفاقا شيوعيين كبارا وانصاراً للسلام ، وعشاقا لزعيم العراق المتفرد بالسلطان ..

واختلجت عينا يونس اكثر من مرة وهو يديرهما ذات اليمين وذات الشمال ، متفرسا في وجوه رفاقه ، لكي يتأكد منهم ، كان يعرف بعضهم جيدا ، وكان يجهل البعض الاخر. وقال في ذات نفسه كمن يؤنب تلميذا عاقا : اكان يجب ان اشترك في تظاهرة اليوم ؟ وتذكر صديقه عاصم الدباغ ، وكيف حاول جاهدا ان يبعده عن الانزلاق الى حافة المخاطر ، ولكنه لم يستجب اليه .. انه الان يجلس في قصره الفاره مطمئنا ، وغدا قد يتزوج سلمى .. وبعد غد سيغدو المعمل معملين ، وتخرج النقود من فمه واذنيه ..

واحس بسيل من الغضب الممتزج بالحقد يجتاحه ، وتمنى لو اتيح له ان يثأر .. ان ينتقم .. ان يضرب بلا رحمة .. ولكنه ما لبث ان آب الى نفسه وقال : ما ذنبه ؟ انه ذنب هؤلاء الذين يتوجهون بي الان الى مصير قد يكون مفجعا ..

ودمعت عيناه وهو يرى السيارة تتثاقل عند احدى ثكنات معسكر الغزلاني لكي ما تلبث ان تقف هناك.

❁❁❁❁❁

– ١٥ –

لم يستطع هاشم عبد السلام ان ينام .. تقلب طويلا على الفراش ، فلم يستطع ان ينام .. كان يتمنى ان ينتزع نصف ساعة فقط من النوم كي يقدر غدا على مواصلة الطريق المترع بالجهد والعناء ومجابهة المجهول ..

غدا ؟

ان شاء الله ، رددها اكثر من مرة وتذكر كيف كانت الساعات الاخيرة من مساء اليوم بمثابة وضع اللمسات النهائية على مشروع ثورة قد اعد لها منذ اسابيع .. ثورة تطمح الى تحقيق

شيء كبير حقا .. تغييرشامل يعيد العراق كله الى جادة الصواب بعد ان تأرجح به طغيان الزعيم، واهواء الشيوعيين اشهرا طوالا ، فاخرجوه عن الطريق ، اتراهم سيقدرون على تحقيق الحلم الذي تتطلع اليه الجماهير ؟

وسرعان ما سيطر عليه ، وتمكن منه لدقائق، احساس قاس مبهظ بأنَ الحركة قد تكون غير مغطاة بما فيه الكفاية ، وان انكشاف جوانب منها قد جعل حكومة بغداد تسعى الى اثارة سلسلة من الضغوط والتحديات لدفعها الى الانفجار والتكشف الكامل قبل موعدها المحدد، ولكي يسوقها رد الفعل والتوتر وفقدان المبادرة الى تضييع الهدف التاريخي الذي تتحفّز لتنفيذه.

استعاذ بالله من الشيطان اكثر من مرة ، وهو يبذل جهدا مضاعفاً لطرد هذا الهاجس ، ومن اجل ان ينتقل الى الجانب الاخر ، فيمنح نفسه الثقة بالامل ، ويحظى بفرح الترقب المتمنى الذي لا تهب عليه دفقات الدخان اللعين ، راح يستعرض في ذهنه النشاط المتزايد الذي شهدته المدينة في الساعات الاخيرة ، ساعات منع التجوال بالذات ، حيث انطلق الضباط الشباب وضباط الصف والجنود ، بحركة محمومة لتوزيع الاسلحة على العناصر المدنية التي كانت تتحرق شوقا ليوم كهذا ، ولترتيب الاستحكامات ورسم الخطط المناسبة لجعل المدينة اقدر على المقاومة اذا ما حدث وان تعرضت لغزو ما قد تشنه بغداد ، او قد يتدفق على الموصل من هنا او هناك.

مئات من الضباط وضباط الصف والجنود ، يؤازرهم ويشد عزمهم ويحمي ظهورهم الوف من المواطنين ، اختيرت نخبة منهم لتأدية مهماتها المرسومة ساعة الحسم التي غدت قاب قوسين او ادنى ..

غدا ؟!

وراح قلبه يدق بعنف كلما تذكر انه لم يعد يفصله .. يفصل الثوار جميعا .. مدنيين وعسكريين ، سوى ثلاث ساعات فحسب ، حيث تقرر ان تعلن الثورة ..

ان العراق يقف الآن على بعد خطوات من الخلاص .. وان مدينته الشمالية التي احبها ابناؤها دائما منذ ان تشكلت بداياتها الاولى في تاريخ لا يعرفه احد .. لتتحفز اليوم لهذه المهمة، باذلة الغالي والرخيص ، مضحّية باعز ما تملك ، من اجل مصير قد يعيد للعراقيين كلهم ما فقدوه .. ترى هل ستقدر على اجتياز الامتحان العصيب ؟

فمن فرح مترع بالاشفاق عليها .. على المدينة الحبيبة ، دمعت عيناه وهو يكافح لكي يحظى بدقائق من النوم . دمعت عيناه وهو يتخيلها عروسة متزينة تنث شذى وعطرا .. او فرسا مطهما لم تعرف النكوص او التراجع يوما .. حتى لو تقدم لذبحها الف من الجزارين .. وحام للحظات بالفرس ، وهي تنطلق بخيّالِها الشاب الذي يحمل رشّاشة بيد ، وكتاب الله بالاخرى ،

لكي يدخل بعد ساعة او ساعتين مدينة بغداد فاتحا ... ويقتحم حصون وزراة الدفاع، ويصفي حسابه مع الزعيم ..

لكنه ما لبث ان رجع الى صراعه القاسي ضد الارق ، والتقلب ، والانتظار .. ونظر الى ساعته ، فوجد أن ثمة اقل من ساعة تفصله عن الامساك ، وكان يعرف جيدا ان ليس بمقدروه تناول لقمة واحدة من الطعام ، كما انه لم يكن بمقدوره ان يحظى بدقيقة واحدة من النوم.

ونادته زوجته اكثر من مرة قائلة : ان طعام السحور اصبح جاهزا ، وان بمقدوره ان يتناول ما يمكنه من مجابهة يوم اخر من الصوم ، لكنه لم يرد عليها ، وكانت دوامات الافكار تاخذه بعيدا ، فتتأرجح به بعنف وقسوة بين الماضي القريب والمستقبل الذي تداخلت خطوطه والوانه ، فلم يعد بمستطاع احد ان يخمن كيف سيتشكل وكيف سيصير ..

واحس براسه يثقل ، وبدوار قاس ، يكاد يلفه ، وبانه يجد نفسه بين المطرقة والسندان، مطرقة الساعات القريبة الماضية وسندان الساعات القريبة القادمة ..

ونادته زوجته مرة اخرى ، فلم يرد عليها ، واستيقظ طفله الصغير على صوت امه ، ففرك عينيه ، ثم ما لبث ان نهض قائما ، وبحركة غير واعية قطع بخطواته الضيقة المسافة بين فراشه وفراش ابيه ، ثم ما لبث ان ارتمى ثانية ليغفو في حضن ابيه ..

طوقه هذا بذراعه ، ودفعه اكثر الى صدره ، وكأنه كان يحاول ان يحميه من خطر ما .. ان يمنحه حنانا قد لا تُمكّنه الايام القادمة من منحه اياه ..

واذ ادرك انه ليس ثمة اية فرصة للنوم ، ترك فراشه ، بعد ان تاكد تماما من دثار طفله، وغادر الغرفة الى الحوش ، حيث كان يسمع اذان الفجر بوضوح من منارة الجامع الكبير ..

وجد حشدا من الشباب هناك ، مبعثرين في الفناء والرواق والمصلى ، بعضهم كان يحمل بندقية او رشاشا ، وبعضهم الاخر اكتفى بوضع مسدس في جيب بنطاله الخلفي ، حيث تبدو الماسورات الصغيرة من وراء الاردية السميكة.

كانوا يعرفونه جيدا .. فما ان وضع خطواته الاولى في الباب الرئيسي للجامع ، واجتاز الممر العريض المفضي الى الفناء ، حتى اقبلوا عليه يشدون على يديه ويعانقونه ..

سأل هاشم احدهم ..

– هل وجدتم مصاعب في الوصول الى هنا ؟

اجاب الشاب وهو يمسح وجهه بمنديله من اثار الوضوء ويمد يده ليتناول رشاشا صغيرا كان قد وضعه في زاوية قريبة :

– ان لدينا اوامر بعدم التعرض ، وسوف نتوجه بعد الصلاة لاداء مهام الحراسة التي أوكِلَتْ الينا وعدد من المقاتلين في دورتي الساعة وباب الجديد ..

وخفق قلب هاشم وهو يتذكر كيف انه مكلف هو الاخر بأداء المهمة التي عهدت اليه ، يتجه مع دقائق الصباح الاولى الى دورة الساعة ، ومن هناك تقله سيارة جيب الى معسكر الغزلاني ، لكي يكون واحدا ممن سيعملون في جهاز البث الذي سيغدو بعد ساعة فحسب ، اذاعة للثورة ، وصوتا ينقل للناس في كل مكان ما الذي تريد ان تقوله بمواجهة السلطة ..

وقال شاب اخر :

– اعتقد ان الامور تجري على ما يرام ، وبعد ساعة او ساعتين سيعرف الطاغية وحراسه من الشيوعيين ان هناك من يقف لهم بالمرصاد ..

ربت هاشم على كتفه وهو يبتسم :

– ان شاء الله .. ان شاء الله ..

وتمنى لو تطول وقفته اكثر معهم ، مع هؤلاء الشبان الذين لم تتجاوز اعمارهم التاسعة عشر والعشرين ، ومع ذلك فان الحياة لم تقدر على ان تاسرهم ..انهم استطاعوا بقوة الايمان، وبالقدرة في الرد على التحدي ، ان يتجاوزوا إغراءها ، وهم الان ، ربما يقفون على حافة الموت، ولكنهم لا يفكرون الا بشيء واحد : الوقوف بوجه الالحاد والطغيان ..

تمنى لو يقف معهم اكثرمن اجل ان يتعلم .. ولكن ها هو ذا نداء الدعوة لاقامة الصلاة يجيئ من داخل المسجد مرتطما بخطوط الاعمدة المرمرية الممتدة هناك بتناسق بديع ، منبعثا بنغماته الندية من مكان ما قريب من المحراب.

وعندما غادر بوابة الجامع الكبير عائدا الى بيته لكي يقضي المدى الزمني الذي يفصله عن الموعد ، كانت خيوط الفجر الاولى قد بدأت تصعد في السماء الشرقية ، ولحظة اثر لحظة كان الافق يزداد انكشافا والعتمة تنسحب تاركة بعض ذيولها القاتمة تلف الاماكن والاشياء .. وثمة قطع متفرقة من السحاب تبحر باشرعتها الناصعة البيضاء في بحر السماء الازرق العميق، ثم ما تلبث ان تتفتت وتتناثر كالقطن المندوف .. وكانت وهي تعود لتتجمع ثانية تتلقى عند حافاتها دفقات من اشعة الشمس الوانية ، فتمتصها بشغف ، وتعرف كيف تذيبها حبا وشوقا لكي ما تلبث ان تطرزها بلون كالبرتقال ، يغمق ويغمق ، حتى يثير حزنها وشجنها فتقطر دما !

– سبحان الله ..

قال هاشم وهو يعاين هذا المهرجان المؤثر الجميل ، ويسعى الى الاندماج فيه او مشاركته – على الاقل – في الحركة .. والبهجة .. والتناغم .. والاسى .. والحزن .. والتلاشي .. ليس من المعقول ان يظل الانسان بعيدا عما يجري في الكون ، قال في ذات نفسه .. واردف : ان الله جل وعلا ينادينا صباح مساء ان ناخذ دورنا .. ان نشارك .. ان نرسم الخطوط، ونفرش الكتل والمساحات ، وان نحكي للنجوم والسحب والشمس والقمر ما يعتمل في

نفوسنا لكي نتلقى منها دفقات السلوى والعزاء ، ونفهم لغتها ، فنزداد قدرة على مواصلة طريقنا صوب المصير المتفرد البعيد ..

وقال كذلك وهو يحس بدفقة من الامل ما احس عشر معشارها الليل كله : هنا ، في الساحة السماوية. في قلب الحوار بين الانسان والاعالي ، يعرف ابن ادم انه ليس وحده في الميدان ، وان مهمّتهُ ليست محصورة بتحرير هذه المدينة او البلد او ذاك .. ولكن في تحرير العالم كله .. الارض على امتدادها ، من العزلة والقطيعة والخصام مع السماوات القريبة والبعيدة، جعلها قديرة ، بتحررها ذاك ، ان تضحك للسماء وان تبكي معها .. ان ترجع ثانية الى مكانها في ذلك المهرجان اللانهائي الذي يلف الحياة والخلائق والاشياء.

ولم يشأ ان يرجع الى البيت ، وقال : انه في هذه اللحظات التي تبدأ فيها دراما الصراع بين النور والعتمة ، يستطيع الانسان المؤمن ان يتعلم ، وان ثورتنا القادمة بعد ساعات ، ما هي الا دفقة نور تسعى لمطاردة الظلام وتطويقه ، ولن يعني انتصارنا توقف الصراع كما لن يعني انكسارها وتلاشيها نهاية للملاحقة الابدية بين الشعاع والدخان ..

وحدق في الافق الشرقي بنشوة عارمة ، وهو يقول في نفسه ها هي ذي دورة جديدة من التقابل الابدي ، كما كانت بالأمس وكما ستكون غدا !

وقال : ان الله جل وعلا يعلمنا ، وقليلا ما نتعلم .. ولكن ومهما يكن من امر ، فاننا سنضع اليوم ما نملك ، وما نقدر عليه في مواجهة القوى التي تسعى الى حصار الانسان ، واختناق العالم ، ووقف حركة الارض الابدية وتناغمها مع الكون .. وفي هذا وحده العزاء ..

ونظر الى ساعته ، فوجد الوقت قد حان ، لكنه لم يشأ ان ينطلق الى المكان الذي تنتظره فيه سيارة الجيب ، عند برج الساعة ، قبل ان يحث خطاه مسرعا الى البيت ، لكي يطبع قبلة على خد علي الصغير ، الغائص في نومه واحلامه ..

❁❁❁❁❁❁

– ١٦ –

استيقظ حنا جرجيس مع خيوط الفجر الاولى ..

استيقظ ؟ ابدا .. فانه ما قدر على ان يغفو لحظة واحدة .. سيطر على فكره واعصابه شبح خوف رهيب كان يمسك بمطرقة من حديد صلب يضرب بها رأسه دقيقة بعد دقيقة ، ويقول له : ستُقتل .. ستُقتل ..

وسرعان ما استحال الكابوس حمى قاسية ، جعلت رأسَهُ ينتفخ وقدراته الذهنية تضعف وتضعف ، حتى تكاد تتلاشى ، فيفقد احساسه تماما بما يحيط به ، وتغيب المرئيات عن عينيه ، ولا يتبقى ثمة سوى شيء واحد : المطرقة التي تنزل كناقوط الماء على رأسه ، فتسمعه ذلك الصوت اللعين : سوف تقتل .. سوف تقتل ..

وما ان اخذت دفقات الشعاع الاولى تتسرب عبر النافذة الحديدية القريبة من سقف الصالة الحجرية المستطيلة التي احتجز حنا فيها وعدد من رفاقه ، حتى احس بشيء من الاطمئنان ، واستعاد بعض وعيه وقدراته على التركيز ، فكان اول ما فعله ان اعتدل قليلا لكي يتكيء على الجدار ، واجال عينيه في اطراف القاعة الكبيرة.

كانت السيارات اللوري قد اجتازت المعسكر مساء امس بعد ان اذنت الشمس بالافول واخذ الظلام يتسرب بين ممرات المعسكر وغرفه وقاعاته ، ولم يستطع حنا ولا اي من زملائه ان يدققوا فيما حولهم ، فقد طلب اليهم ان يحثوا خطاهم عبر شبكة من الممرات ، بعضها طيني لزج ، وبعضها مرصوف ، لكي ما يلبث الحراس ان بفرقوهم الى ثلاث مجموعات ، ضمت كل منها عشرات المعتقلين ، وزعوا على ثلاث من القاعات الكبيرة المبنية بالحجر والاسمنت ، والمغطاة بالصفيح المتعرج الذي يستند على اعمدة خشبية غليظة ، تستقر وهي تتقابل على عمود وسطي املس ، يمتد على طول السقف ، ولم يكن ثمة في القاعة سوى عدد من النوافذ الصغيرة المشبكة بالحديد ، والتي تبعد كثيرا عن اسفل الجدار حتى لتكاد تمس السقف ، اما الارضية فقد غطيت بطبقة من الاسمنت ، تتخلله شقوق وثغرات، تنكشف من خلالها الارض الطينية الحمراء ، فتزيد جو القاعة رطوبة ، وتجعل بردها لا يطاق ..

وأدار راسه قليلا الى اليسار ، فاذا به يجد يونس سعيد عتاله .. احس بشيء من الارتياح وقال في نفسه : لقد جاورني في السيارة وها هو ذا يجاورني في النوم على ارضية القاعة اللعينة ..

فرك يونس عينيه ثم فتحهما ، فاذا بوجه حنا جرجيس يطل عليه ، اصفر شاحبا ، يحاول صاحبه بصعوبة ان يرسم عليه شبح ابتسامة او ظلا من الاطمئنان وهو يقول :

- اذن فانت هنا الى جواري ؟

لم يجبه وظل يدعك عينيه ..

واصل حنا ولكن بصوت اكثرانخفاضا :

- ظننت انهم سيقتلوننا ، توقعت دخولهم علينا بين لحظة واخرى فلم استطع النوم ، ان رأسي يكاد ينفجر ..

زحف يونس قليلا لكي يتكيء على الجدار هو الاخر ، واحس حنا بشيء من الحسد بعد ان تأكد لديه من انتفاخ وجهه انه قد نام فعلا لعدة ساعات.

– اذن فقد مضى الليل بسلام ؟

قالها يونس وهو يدني فمه من اذن زميله ، فاحس هذا بشيء من الارتياح ، اذ قدر على ان يجعل جاره يتكلم اخيرا ..

– اذا اردت الحق ، فاننا نعيش الان حالة يستوي فيها الليل والنهار !

تساءل يونس وهو يرسم على وجهه تعبيرا اقرب ما يكون الى السذاجة :

– كيف ؟

– لاننا بانتظار الذبح في اية لحظة ..

قال يونس بالسذاجة نفسها :

– هكذا ؟

– طبعا.

اجاب حنا بشيء من العصبية :

– فماذا تتصورهم فاعلين بعد ان جاؤوا بنا الى هذا المكان ؟ اتعتقد انها مجرد نزهة ، ام .. ؟

قاطعه يونس وهو ينزلق ثانية على فراشه :

– ان الجدار رطب ، واخشى ان يؤذي ظهورنا .

بينما تشبث حنا بمحاولة استدراجه لمزيد من الحديث ، علَّه يطرح ما يكسر به الحلقة المفرغة التي أحاطت به صوب احتمالات اخرى غير القتل ..

– كنت اسألك عن الهدف من وضعنا في هذا المكان ..

– تسالني انا ؟

– طبعا ..

– الا يجوز ان يكتفوا بحجزنا هنا لحين تمرير مؤامرتهم الدنيئة ؟

– ها ؟!

قالها حنا ، وقد التمع أمامه على حين غفلة احتمال غاب عن ذهنه تماما ، وها هو يونس الذي لم يتوقع في اجابته خيرا ، يطرح بشيء من الذكاء الفطري هذا الاحتمال ..

وكالغريق الذي يجد فجأة لوحا عريضا من الخشب الطافي ، فيسعى للتشبث به ، اقترب حنا من زميله ووضع يده على كتفه بمحبة وقال له :

– اذا صدق حدسك يا يونس فسوف تكتب لنا حياة ثانية !

لم يجبه يونس ، بينما واصل حنا باللهفة نفسها :

– ترى هل سنعود الى اهلنا واطفالنا ؟!

ولم يكترث يونس لتمنيات زميله ، لانه لم تكن له زو جة ولا ولد ، تذكر كيف انه حاول عدة مرات ولم يفلح ، وبذلت امه واخته جهودا متواصلة للعثور على ابنة الحلال ، فلم تصلا الى نتيجة ، كانت الامهات يسألن عنه قبل ان يعطين الجواب ، فكانت المعلومات تجيئهن مؤكدة ما يقال عنه ، فيعتذرن.

كان يونس يعاني من قطعة بيضاء اصابت بالتشويه عينه اليسرى ، وكان هذا وحده سببا لاحباط مساعي اهله الواحدة تلو الاخرى.

ليس هذا فحسب ، بل ان حواجز اخرى اعترضت هدفه ، فلقد اشتهر في الحي بشيء من التخلف الذهني ، كما ان شهية السكر استعبدته الى حد الادمان ، رغم انه لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر ، وكان يعاني من انكماش في تكوينه الجسدي بسبب من هزاله الشديد ، اما راسه الصغير المستدير كالكرة فلم يسعفه او يغطي عليه قدر كاف من الشعر ، يمنحه شيئاً من التوازن والامتلاء ..

واذ وجد حنا زميله يعود الى صمته ثانية ، اثر السكوت هو الاخر ، وراح يجيل عينيه في ارجاء المكان ..

ثمة اكثر من خمسين معتقلا مبعثرين في اطرافه ، بعضهم لا يزال يغط في نومه ، وبعضهم الاخر سئم الارق والمنام ، فاعتدل مسلما ظهره للجدار ، وهو يجتر افكاره وتوقعاته، بينما اندمج الاخرون في حديث هامس ، تقطعه بين لحظة واخرى عبارة : اصمت فانهم يسمعوننا ..

ومرقت في ذهنه فكرة ما جعلته يستعيد توازنه اكثر ، بينما غطت وجهه ابتسامة يصعب اكتشافها ، وقال وهو يمسح نظارته بطرف بيجامته :

- اترى جريمتهم لن تبلغ رائحتها بغداد ؟

نظر اليه يونس سعيد دون ان يدرك معنى كلامه وتساءل :

- ماذا ؟

واصل حنا :

- اذا عرف الزعيم ما الذي يفعلونه بنا ، فانه لن يسكت وسيعرف كيف يعاقبهم ..

خرج يونس مرة اخرى عن صمته ، وابدى رغبته في الحديث حيث عرف حنا الى اي وجهة يسوقه ، وقال :

- هل تتصور انه لا يعرف ما يجري ؟ انها مؤامرة كبيرة يا حنا ، ومن ورائها دول تسعى للفتك بجمهوريتنا الفتية وزعيمها الاوحد ، اتراه لا يعرفها جيدا ؟

قال حنا وهو يثبت نظارته امام أرنبة أنفه المقوس قليلا ، ويعيد خصلة شعره الفاحم الى مكانها بعيدا عن جبهته الضيقة :

– لا اتحدث عن المؤامرة ، ولكن عن خلاصنا .. لا يمكن ان يقف الزعيم مكتوف اليدين ازاء مئات من خيرة انصاره ومحبيه يساقون للاعتقال .. وربما .. قاطعه يونس وهو يهرش راسه:

– اذا تحرك لسحق المؤامرة فسوف ينقذنا .. بالتاكيد ، سوف يخرجنا من هذه المصيدة التي وضعنا فيها الشواف ..

قال حنا وهو يتنهد :

– ولكنني اخشى ان تجيء محاولته متأخّرة ، بعد ان يكون الاوان قد فات ..

تساءل يونس :

– كيف ؟

لم ينتبه لسؤاله وواصل :

– او ان تكون محاولته على حسابنا !

تساءل يونس مرة اخرى :

– كيف ؟

اجاب حنا وهو يجيل بصره بحزن في اطراف القاعة الكبيرة :

– لن يسلم المتآمرون بالهزيمة قبل ان ينتقموا .. اقسم لك يا يونس .. اننا بين ايديهم صيد سهل ، بمقدروهم اذا خسروا كل شيء ان يُشفوا صدورهم بقتلنا ، لسنا عددا قليلا او اناسا عاديين.

واحس يونس وهو يستمع العبارة الاخيرة بشيء من الثقة بالنفس ، سرعان ما تخطت حدودها المعقولة الى نوع من الغرور ، وتصور نفسه يقود حشدا من جماهير الناس في تظاهرة كبرى تصرخ في وجه المتامرين ، وتنقض عليهم لكي تمزقهم .. وكان يتخيل نفسه انه باشارة واحدة منه يسوق اعداءه الى حتوفهم ..

كان يونس يعاني من احساس شديد متسلط بالنقص ، فان حول عينه اليسرى وضآلة جسده ، وافتقاره لأيُما قدرة ذهنية ، ونظرة الاهل والمعارف اليه ، تلك النظرة التي انطبعت في ذهنه وهي تحمل مزيدا من الاحتقار والسخرية والاشفاق ، هذه جميعا مكنت ذلك الاحساس المبهظ منه ، وهو لم يكن من النوع الذي يستجيب لتحدي النقص فيسعى للتعويض بهذا الاتجاه او ذاك ، لقد كانت تخونه قدرته الذهنية المحدودة ، وعجزه ، فيظل دائما هناك يتخبط في شباك احساس مرير.

وتذكر صديقه القديم عاصم الدباغ ، وكيف انه يتمتع الان بثروة ابيه .. بِمَ كان يتميز عنّي ؟ لقد قضينا سوية سني الدراسة الثانوية ، وكنا نزحف معا ببطء ، ونُتَّهم معا بالغباء ، فلماذا تقدم وتاخرت ؟ وتذكر خطيبته سلمى وكيف انه قدر بسهولة ان يخطبها .. ومن يدري ؟ فلعله يتزوج عما قريب ، ونحن هنا نعني الخوف والمذلة ، وتذكر كيف فشلت محاولات امه

واخته بان تخطبا له واحدة مهما كانت .. سوف يشبع من كل شيء بثروة سقطت عليه من السماء ، وانا أُعاني جوعا لا يرحم الى كل شيء .. كنا نزحف معا انا وهو ببطء .. فلماذا ؟

واعتدل مرة اخرى ، وزحف بظهره الى الجدار لكي يريحه هناك ، وسمع حنا جرجيس وهو يقول:

– ان المسألة في اعتقادي ليس في قدرة الزعيم على التحرك في الوقت المناسب لسحق المؤامرة ، ولكنه القرار الذي يدور في رؤوس المتآمرين ..اذا كانوا قد قرروا قتلنا ، فلن تستطيع قوة في الارض ان تخلصنا .. أَما إِذا ..

وتذكر – لا يدري لماذا ؟ – هاشم عبد السلام ، من بين سائر المتآمرين .. وقف امامه بالجبة والعمامة واللحية القصيرة السوداء والعينين المتقدتين ، وراح يقول له بصوت متوعد : انني اعرفك جيدا يا حنا ، مخلوقا خبيثا ملتويا كالأفاعي الملساء .. تعرف كيف تنفذ سمها ثم تنسحب متسللة لا يدري بها احد ، ولكنك كشفت عن نفسك اخيرا .. وسوف اقول لهم – اذا نسوا – : انك ساهمت في مهرجان انصار السلام حتى بُحَّ صوتك ، ثم غادرته الى دير ماركوركيس لكي تحبك الحبل الذي يلتف على اعناقنا ، لكني ساطلب منهم ان يقتلوك قبل ان تنفث سمك مرة اخرى ..

وما لبث ان انتابته رعدة جعلت جسمه يرتجف للحظات ، وجبهته تتصب عرقا ..

واخرجه يونس عن خواطره المضنية وهو يقول :

– انني احس بجوع شديد ، أَتُراهم يرغموننا على الصوم ؟

حاول حنا ان ينتزع ابتسامة بصعوبة بالغة :

– وانا ، هل يحق لهم ان يرغمونني على الصيام ؟

اجاب يونس :

– كلنا سواء في هذا الامر .. ولكنني جوعان ..

قال حنا :

– الم اعرض عليك ليلة امس ان تاكل حصتي ؟ انني في ظروف كهذه لا استطيع ان اتناول لقمة واحدة حتى لو امتد الحال لعدة ايام ..

قال يونس وهو يحاول جاهدا ان يحك نقطة ما بعيدة في ظهره :

– ليلة امس ؟ وهل كان بمقدور احد آنذاك ان يأكل لقمة واحدة ؟

اجاب حنا وهو يسمر بصره باحدى النوافذ الصغيرة القريبة من السقف المعدني وكأنه يحلم :

– اذا اتيح لنا ان نخرج ، فسوف اولم لك ولكل الموجودين هنا وليمة يتحدث بها الرائح والغادي ..

ووجد يونس نفسه يعود الى حلمه مرة اخرى ، ويتخيل نفسه محمولا على الاكتاف ، وهو يهتف بحياة الجمهورية و الزعبم ، ويصب اللعنات على الرجعية والتامر .. وللحظات رأى نفسه يركض مع حشد من الجماهير الى دور كل الذين رفضوا تزويج بناتهم لكي يقلبها على من فيها ، ثم ما لبث ان تفردت في ذهنه صورة ما ، بدأت غامضة ، مهوشة ، ولكن خطوطها وتفاصيلها اخذت تتبلور و تتماسك بالتدريج حتى غدت في نهاية الامر واضحة بينة ، بل انها تجاوزت تسطحها ذا الطول والعرض لكي تغدو مجسما يملك مع الطول والعرض عمقا يجعله اقرب الى الحقيقة .. وقال في نفسه : آه .. لو اتيح لنا فقط ان نفلت من الموت !

❁❁❁❁❁❁

- ١٧ -

لم تكد اشعة الشمس الاولى تطل بانكساراتها الذهبية عند اطراف السماء الشرقية حتى كان عبد الرحمن الشيخ داود يجلس في الشرفة المطلة على الشارع العام ، لا يكاد السياج الخارجي الواطيء يفصله عن اللوحة التي تمتد امامه وتنتشر في المدى ، يشارك في تشكيلها وتلوينها الفجر والربيع وندى الصباح الذي يتلامع على رؤوس الحشائش الخضر كالدر واللؤلؤ، ويمنحها الروح والحياة .. روح قادم من مكان ما .. مكان لا يستطيع عبد الرحمن ولا اي واحد من عشاق الجمال ان يحددوا مصدره الآتي منه ، لكنه متحقق هنا على الارض بمواجهة الحواس .. متعشق – يقينا – مع الخضرة والندى والشعاع ..

وعبد الرحمن اختار هذا الموقع المكشوف لبناء داره منذ اكثر من عشر سنوات ، لانه يعشق الارض ، يحبها حتى اخر خلية في دمه وهو يراها بملء عينيه ووجدانه ، ترتدي في اخريات الشتاء رداءً رقيقا من العشب الخفيف كالزغب الذي يكسو الفراخ ساعة تلدها امهاتها..

بعدها يبدأ مسلسل التخلق الجميل الذي لا يمكن لانسان ان يعرف خطواته جيدا ، ويشبع منها جيدا ، كما يمكن لأولئك الذي يعيشون في الموصل ، ويتقلبون في ربيعها ذي القصائد والنزوات والالحان ..

وعبد الرحمن يتابع هذا المسلسل ، ساعة بساعة ويوما بيوم ، انه يجلس هنا الساعات الطوال لا يكل ولا يمل ، وطالما قال لاصدقائه انه في هذا المكان يقرأ في كتاب ليس كالكتب ، ويتعلم ما لم يتعلمه عبر سني الدراسة كلها !

ويوما بعد يوم ، ومن خلال تغير لوني هاديء ، ولكنه منظور ، يتابع المهرجان عروضه المؤثرة ، مصعدا بها نحو نهايات اذار ، حتى يبلغ الجمال اوجه ، وحيث تتفجر دفعة

واحدة ، وتتعاشق بعنف الالوان الحارة ، والروائح الشذية ، وتهب على البراري والحقول ريح مغسولة تقل سحبا كالثلج ، لكنها مترعة ماءً .. اذ ما يلبث الابيض ان يتحول الى الازرق فالرمادي ، ويعمق هذا كله لكي ما يلبث أن يسوّد ويسوّد حتى كأن ليلا غريبا قد اطبق فجأة على السماوات القريبة .. وما هي الا لحظات حتى تتمخض السحب الثقال عن مطر غزير كافواه القرب ، يغسل الحقول ، يسقيها ، يزيدها ألقاً ونضارة وبهاءا .. وما هي الا دقائق حتى يكف الغطاء ، وتمارس الريح تمزيقها للسحاب المطبق ، بعد ان عملت قبل قليل على التحامه وتوحده .. ويتراجع العنف اللوني من الاسود الغامق الى الرمادي فالازرق فالابيض المتلامع ككتل الثلج الرطبة ، وعندما تعود الشمس لكي تسكب اشعتها من جديد على الارضية المفعمة الخضراء التي تتوق للشعاع ، فان المرء يستطيع ان يتصور تماما ، بل ان يلمس ، هذه الاشعة، ويرى كم هي مغسولة ، وكم هي لامعة ، وكيف سيكون العناق مؤثرا بين الدفء المتوهج القادم من السماء ، وبين الارض الخضراء التي ترتجف من البرد والوحشة !

لقد كان عبد الرحمن يعيش هذه الملحمة الربيعية بجوارحه واعصابه ، يندمج فيها ، ويذوب في منحنياتها المتدثرة بالعشب والصفّير والنفل وشقائق النعمان .. يحس بالبرد حين يرتجف العشب عند هبات الرياح ، وبالرطوبة والبلل حين تتساقط الامطار .. وبالوحشة والفزع حين تسود الظلمة ويهرب الناس تاركين الارض لوحدها ، ثم هو يحسّ بدفء شديد ممتلىء ، حين تعود اشعة الشمس لكي تلاحق الرطوبة والبرد والوحشة والظلام ، فتعيد لمعادلة الربيع توازنها المفقود !!

ها هو الان يجلس وحيدا كعادته ، صبيحة الاحد الثامن اذار .. المحطة الاولى لقطار الربيع الذاهب الى النهايات القصية لكي ينث الشذى والعبق، ويوزع على اطراف المدينة الحلوة مجانا باقات الورد والرياحين ..

طيلة ساعات الليل وهو يحتضن المذياع ، ويحرك عقربه ذات اليمين وذات الشمال ، في محاولة منه لالتقاط اشارة ما ، نبأً مهما يكن من بعده وغموضه ، فقد يمنحه الجواب الذي تاق اليه .. لكنه لم يعثرعلى اي شيء .. واخيرا قدر على ان يرتاح قليلا في احضان النوم اللذيذ، لكنه ما لبث بعد نصف ساعة ان فتح عينيه على بدايات الفجر الاولى ، وهي تتسلل بهدوء وخفاء ، لكي تغطي بلغتها الخاصة صفحة المدينة من اقصاها الى اقصاها .. وبحركة غير ارادية مد يده الى زر المذياع لكي يبدأ محاولته من جديد ، واذ لم يحظ بشيء ، غادر فراشه لكي يصلي الفجر قبل فوات موعده ، ويذهب بعدها الى مكانه في الشرفة حث اعتاد ان يجلس هناك.

وتذكر صهره عاصم ، عندما التحمت جوارحه وعيناه بالارض الخضراء الرطبة المنفتحة حتى حوافي نهر دجلة الذي يلتمع احيانا فتستطع العين الشاعرة احيانا ان تراه وتسمعه

وهو يتدفق ، رغم انه بعيد لا يكاد يرى .. وقال في نفسه :انه يريدنا ان نرحل الى بغداد .. نعم .. ولكن من يضمن الرجوع ؟

وتخيل كما لو ان الامور ازدادت تعقيدا ، والافاق المحيطة بالموصل ازدادت ظلمة واكفهرارا ، ومضى مع تصوره لكي يتصور انه استجاب لنداء صهره ، ورحلوا جميعا الى بغداد ، ثم حدث شيء ما ، حدث قد يحدسه الإنسان ، لكنه غير قادر البتة على تفحصه ومعرفة ابعاده الحقيقية ، فاضطروا للبقاء هناك ، ولم يعد بمقدروهم ان يرجعوا الى الموصل ، واحس كما لو انه يختنق ، فطوح بيديه ساعيا لابعاد تصور قاس اشبه بالكابوس ، اذن فهو يريدنا ان نرحل الى بغداد ؟ وارتسمت على وجهه ملامح امتزجت فيها خطوط الحزن ، والسخرية والتوجس، والقلق والاشفاق ..

وكمن يتحفز لكي يمنح وعده الابدي للمحبوب ، زم شفتيه وقال في ذات نفسه وهو يمد بصره صوب الحافات البعيدة للحقول ، حيث تنتصب اشجار الحور والصنوبر والسرو والسنديان: لن اغادر الموصل أبداً .. وتذكر ما قاله يوم امس لصهره ، فاحس بارتياحعميق ، وبتوحد الذين يفون بوعود سبق وان قطعوها ، وها هو ذا يبر به لحظة الحسم الصعبة ..

وادرك انه غير مستعد البتة ان يودع – ولو لفترة قصيرة – هذه الخضرة الواعدة التي يتابع رحلتها يوما بيوم، ترى ابمقدور البجع ان يغادر البحيرات الزرق وهو لا يعرف متى سيعود؟!

كانت الشمس قد ارتفعت قامة السماء عندما لمح عبد الرحمن سيارة جيب تنحدر بسرعة صوب المعسكر وهي تقل رجلاً معمما ، ورغم ان المشهد كان مفاجئا ، وسريعا فان عبد الرحمن استطاع ان يلتقط ملامح الرجل ، وخمن انه هاشم عبد السلام ، وبعد محاولة منه لتعميق خطوط الصورة في ذهنه ، قال في نفسه بالتاكيد ، انه هو !

وما لبث ان انفجر قلقه الذي مارس تعذيبه ساعات الليل الطويلة ، وها هو الان يعود الى حالة الانتظار المتلهفة ، التي تريد ان تمزق الحجب وتتجاوز عوائق الزمان والمكان ، لكي تعرف ما الذي يخبأُه المجهول ، وحاول ان يطمئن نفسه قائلا : ما دام انه يتجه الى المعسكر في هذه الساعة المبكرة ، وفي سيارة عسكرية ، فلا بد ان في الامر شيئا ما .. انه – على ما اتذكر – لم يفعلها من قبل !

وزاد اقتناعه رسوخا وهو يرى ثلاث ناقلات عسكرية محملة بضباط الصف والجنود ، وهم يحملون سلاحهم ، منطلقة صوب المدينة وما لبثت ان تبعها ناقلات اخرى ، كانت تقطعها بين الحين والحين سيارات جيب تقلّ عدداً من الضباط.

قال وهو يحس بنشوة غامرة : لقد فعلوها اذن ؟ وتنفس بعمق كمن يلقي عن كاهله عناء ليل طالت ساعاته ، وتمددت لكي تطيل الفاصل بينه وبين الصباح ..

ولم يكن بمقدور أيُّما شيء ان يكتسح الفرحة الطاغية التي ملكت عليه كيانه ، لولا انه تذكر ما سبب له شيئا من القلق ، فدخل الصالة مسرعا ، واعاد المحاولة مع المذياع دون ان يحظى بشيء ..

اذاعة بغداد بدأت بثها المعتاد ، وليس ثمة جديد على الاطلاق .. الاذاعات الاخرى تتثائب بموسيقاها ، وتطرح كلمات وجملا افرغت من محتواها ..

اذن فمتابعة ما يجري في الشارع ، تحت السمع والبصر ، خير من التشبث بالمجهول ، قال في نفسه ، وعاد ثانية الى مكانه من الشرفة .. والشارع الطويل الهاديء الذي لم يكن يعكره اي شيء عبرهذه الساعة المبكرة ، كان الان يحفل بحركة غير معتادة ذهابا وايابا ، وكان يرى بين وقت واخر رجالا مدنيين وهو ييممون بسيارات عسكرية واخرى مدنية صوب المعسكر ، وقال في نفسه مرة اخرى : انه لامر مشهود ، ولن يستطيع صمت المذياع ان يغطي على هذا المشهود !

ولم يستطع ان يجلس او ان يظل قائما يحدق في الشارع ، فراح يذرع الشرفة بعصبية ذهاباً واياباً ، وينزل الدرج لكي يقف قرب الباب الخارجي ، ثم ما يلبث ان يرتقي الدرج ثانية ، ويمد عنقه صوب النهايات البعيدة للشارع ، عله يرى اويخمن ما يجري هناك في المعسكر.

وسمع سلمى تناديه ، فلم يرد عليها ، واعادت النداء ، فلم يشأ ان يجيب ، ولكنه دهش وهو يراها تهرع اليه بلهفة ، صارخة :

– لقد فعلوها يا ابتاه !

سأَلها وهو متسمر في مكانه :

– ماذا ؟

امسكت به من ذراعه ، وجرته الىالداخل وهي تقول بصوت يكاد يختنق فرحا ، بينما في عينيها تتحفز دمعتان حزينتان لمغادرة موقعهما نحو الاهداب :

– كنت ادير عقرب المذياع ، فاذا بصوت المذيع يعلن الثورة على طاغية العراق !

سألها مرةً أخرى وكأنه يقف على حد فاصل بين اليقظة والحلم :

– اسمعته باذنيك ؟!

– بالتاكيد ، وها هو ذا يتابع قراءة البيان الاول !

وانقض عبد الرحمن على المذياع ، والصق به اذنه اليمنى ، وكانه يستمع باعصابه وجوارحه كلها ويدمدم مع نفسه :

– لماذا عذبتني اذن طوال الليل ؟!

❁❁❁❁❁❁

- ١٨ -

تلقى عاصم الدباغ نبأ الثورة بمشاعر غامضة تتارجح بين التوجس والخوف ، وبين الرضا والارتياح.

مشاعره تلك كانت ، كقطع السحاب المتناثرة لحظت ائذ في السماء القريبة ، وعند حافات الافق ، تتمدّد وتتقلص وتاخذ اشكالا شتى ، ولا تكاد يقر لها قرار ولو للحظة واحدة ، لكي يقال: انها تشبه كذا ، او تقول شيئا محددا .. ان قطع السحاب المبحرة في السماء هكذا ، منذ الاف السنين ، لتشبه الحلم الذي تتميع فيه الاشياء وتفقد الاشكال تماسكها وصلابتها ، ولا يتبقى ثمة حدود على الاطلاق تستقر عندها الشخوص والاماكن والازمان .. ويصعب على الانسان وهو يحلم ، بل يستحيل ان يقول ان هذه محلته ، وان هذا داره ، او ان ذاك الرجل اخوه وتلك خطيبته!

ويتمنى عاصم ان يستقرعلى شيء ، ان تكون لفكره ملامح فيها شيء من التميّز والوضوح والصلابة والديمومة ، ولكن عبثا .. يتمنى ان تتجاوز قناعاته صيغها الحسابية الهشة، او تمخضها الرؤيوي الذي يتغير ويتغير حتى يكاد لا يغدو شيئا على الاطلاق ! وياخذه الدهش احيانا انه كان يغبط – للحظات – زميله القديم يونس عتاله ، لقد قدر هذا ان يصير شيوعيا ، مهما يكن امر الدوافع التي قادته الى هذا الاختيار ، وبالمقابل فان رجلا كهاشم عبد السلام ، يعيش متوحدا سعيدا بايمانه الراسخ كالجبال العالية ذات الجذور التي تخترق قشرة الارض صوب الاعماق .. وتذكر خطيبته سلمى وقال : آه .. انتزعها من طبقة غائرة في وجدانه ... وتذكر كيف انها اختارت هي الاخرى وكيف انها تتلقى الان النبأ ، بالفرح الذي يعرف جيدا كم انه محروم منه ، انه لا يدري حتى الساعة هل ان ثورة كهذه تهمه بشكل من الاشكال ، ام انها لا تهمه على الاطلاق ؟

وتمنى لو يملك القناعة ، والحماس المتوهج ، الذي يدفعه لكي يذهب فيصرخ في وجه عبد الكريم قاسم في اذاعة الثوار ، بل انه يتمنى ما اثار استنكاره للحظات ، ان يكون واحدا من المعتقلين في عنابر معسكر الغزلاني ، مدافعا بحياته عن الجمهورية والزعيم !!

وقال في نفسه : هذا الحاجز العالي الذي يفصلني عن الوطن ، عما يسميه كلا الطرفين : القضية ، هو نفسه الذي يفصلني عن سلمى .. آه لو كنت قديرا على ان اتوهج بالحماس والعشق مثلها ، اذن لقدرت على مواصلة رحلتي معها متوحدا ، سعيدا !

وتخيل نفسه ، للحظات ، يحمل رشاشته ويقف مع حشد من ابناء المدينة ، يدافعون عنها ضد الغزاة الذين بدأوا يتوجهون الان اليها من كل مكان ، ولسوف يتدفقون عليها بعد

ساعات ، لقد استبيحت الموصل قبل يومين ، فردت على المحاولة بما تقدر عليه ، وها هي الان تتعرض لاستباحة اخرى ..

ووجد نفسه يندفع وراء اغراء الحلم فيقاتل ، ويلتحم ، ويناله ما ينال المؤمنين بقضية ما، فتخترق صدره رصاصة ، ويسقط شهيدا مضرجا بدمائه ! وكانت سلمى وهو يحلم تقف قريبا منه، تدفعه وتزداد به اعجابا وهياما ! لكنه ما لبث ان ارتد الى لحظة الوعي القاسية ، وقال في نفسه : حلم .. فها هو ذا يتفكك ، ويفقد تماسكه .. ويضيع ..

وغادر الصالة هاربا من افكاره الى الحديقة الخلفية الواسعة المطلة على نهر دجلة ، وهو يتدفق بعنف ربيعي مفاجيء عند اسفل الجرف الصخري العالي الذي عرف ابوه كيف يختاره مكانا لبناء البيت الجديد ، من اجل ان يطل على بانوراما الطبيعة ، وهي تعرض ملحمتها على شاشة كبيرة ، ممتدة ، لا يكاد يحجبها شيء.

إنه يتذكر كيف انهم كانوا يجلسون هنا في الربيع الماضي لا يعكرهم شيء ، وكيف انهم كانوا يشربون الجمال الواعد ، هنا حتى الثمالة ، اما الان ؟

واجال عينيه في التسريحات المترعة بشجيرات الورد ذوات الالوان التي لا حصر لها: الابيض الناصع ، والارجواني ، والاصفر ، والبرتقالي ، والوردي الفاتح ، والاحمر القاني الذي يغمق ويغمق حتى ليكاد يشبه في بعض الشجيرات القطيفة السوداء ..

وكان النرجس ذو الرائحة الهادئة الحلوة ، يودع اخر ايامه ، منتشرا عند حوافي التسريحات ، بينها وبين الثيل الاخضر المنتشر على مدى مساحات واسعة ، النرجس الذي يحمل دوما بشارة الربيع القادم ، لكنه سرعان ما يترك الساحة بعد اقل من شهر من اعلانه المحبب ، لازهار أكثر قدرة على تحمل عنف الربيع ، وحيويته ، ونزواته المفعمة بالتدفق والشذى : القرنفل ، العطر والشيح الاصفر الذي لا يكف عن التسلل عند كل مساء عبرالنوافذ والشرفات لكي ينشر عبقه في كل حنية وعلى كل سرير.

ولم يكن عاصم قديرا ، عبر دوامة الحيرة التي تتآكله الان ، على ان ينظر ، مجرد نظرة الى الدعوات التي امتدت لكي تقدمها له الاذرع الخضراء الريانة للعطر والورد والشيح.

وتوغل اكثر في الحديقة لكي ما يلبث ان يقف بمحاذة السور الذي يفصلها عن حافة الجرف ذي الانحدار المفاجيء والسريع صوب النهر.

كانت (دجلة) الان قد فقدت صفاءها ذا الزرقة الهادئة وانسيابها الولهان صوب الجنوب، اذ بدأت مياهها تتكدر بالطين الكثيف الغامق الذي يحلو للجبال والتلال والروابي ان تبعث به اليها كل ربيع ، ومع الطين القادم من هناك ، كانت دجلة تتلقى بسخاء هبات جديدة اكثر غنى واثارة ، مقادير هائلة من المياه الحمراء التي تتدفق من كل مكان لكي تصب في

النهر، هذه هي زخات المطر الاعصاري العنيف الذي يجعل الاودية تسيل مزبدة لكي لا ترتاح الا في احضان النهر القديم ..

وفيما بعد ، عندما تزداد حرارة الشمس ، وتصبح قديرة على مغازلة كتل الثلج المتحجرة القاسية ، عند قمم الجبال الموغلة في الشمال ، واذابتها !! فان وجبات اخرى من المياه ما تلبث ان تصل الى دجلة ، التي يكون الوجد قد فاض بها ، ولم يعد بمقدورها هضم وتمثل كل هذه الهبات القادمة ، فما تلبث ان تغضب وتزمجر وتقذف بمياهها المتدفقة حافات المدينة ، كأَنما تريد ان تشاركها معاناة الحمل المبهظة التي يفوق طاقتها على التحمل ، وإذ كان الجانب الايمن للمدينة يتابى على النهر، بسبب من ارتفاعه ، فان الجانب الايسر يتحمل الهموم مضاعفة ، حيث يرى في اخريات كل ربيع وهو يعاني من الاختناق غرقا !!

ولم يخطر على بال عاصم ، ولو لحظة واحدة ، لماذا رفض عمه طلبه الملح بالرحيل الى بغداد ، سوى انه نوع من العناد .. من الانسياق وراء تشبث ابنته غيرالمبرر ، وربما نوع من المشاركة السياسية فيما تشهده المدينة من احداث ، لكنه ما خطر على باله ان الجواب قد يكمن هنا ، فيما يراه ، ويسمعه ، ويشمه !

وقال في نفسه : اتراها تجدي محاولة اخرى لاقناعهما بالرحيل ؟ ورد بسرعة : لا اعتقد، فلقد بذلت عصر امس كل ما بمقدوري ، وتلقيت الجواب الاخير ، وحتى لو كان هناك ثمة شيء من أمل ، فمن لي بالوصول الى هناك ، واعادة الكرة ؟ وتذكر عيني سلمى العميقتين كبحر لا قاع له ، وقال : كم انا بحاجة اليهما في هذه اللحظات اذ تتولاني رغبة عاتية بالغوص الى الاعماق هروبا مما يشهده سطح المدينة من احداث ؟!

وسمع امه تناديه : الا تتغدّى ؟ لقد اصبح الطعام جاهزا .. ونظر الى ساعته فاذا هي تجاوز الثانية ظهرا ، وتساءل : اتغدّى ؟ واحس بشيء من التأنيب وهو يتذكر سلمى واباها ، وكل الذين يقفون الان على الحافة بين الموت والحياة .. بين الانتصار والهزيمة ، يدافعون عن قضيتهم بمواجهة قوى تفوقهم بكثير .. تذكرهم وهم صائمون ، وهو لا يدري هل سيتاح لهم الافطار في موعده ام لا ؟

ونادته مرة اخرى فاجابها بعصبية :

- لا ليس في نيتي ان اتغدى ..

وسمعها تقول :

- ولكنه مضى على موعد الغداء اكثر من نصف ساعة !

اي موعد ، هذا والمدينة تتلوى جوعا ؟!

لم يرد عليها هذه المرة ، ومد بصره الى الجهة المقابلة ، فيما وراء الحافة الشرقية للنهر، حيث تتكاثف وتزدحم غابات السرو والصنوبر والسنديان ، بظلالها القاتمة الرطبة ،

وحيث تروح وتجيء مساء كل يوم اسراب لا حصر لها من الطيور مبحرة بهدوء ، صوب الشمال او الجنوب ، ملتزمة نظاما دقيقا يبدو ان عمره الاف السنين. وتنهد وهو يستل ثانية، من طبقة ما من اعماق قلبه ، امنيته التي كادت ان تنسى .. الرحيل ، مثل هذه الطيور ، جنوبا، بحثا عن الدفء والامان !

❁❁❁❁❁❁

- ١٩ -

اوشك النهار ان ينقضي وحنا جرجيس ينتظر الصلب بين ساعة واخرى .. ويونس سعيد عتاله يستعيد التصور المحموم الذي ارتسم صبيحة اليوم في ذهنه ، وراح يعصف بعنف بين حين وحين فيما يشبه الحمى المحرقة التي تهيمن على العقل والجسد ، فتجعلهما اسيري اهوائها المتقلبة ، والحاحها اللجوج ، ولفحاتها التي لا تطاق ..

وعبر النوافذ الصغيرة الاربع ، المعلقة في اعالي الجدران ، قريبا من السقف المعدني، والمشبكة بالحديد ، كانت ترى بوضوح اخر رشقات الضوء وهي تخفت وتتلاشى ، وتخفق حفقاتها الاخيرة الهادئة .. ثم تغيب ..

آه .. لو يلغى الليل من نظام الوجود ، قال حنا في نفسه ، فاني لا اطيق ليلة اخرى كتلك ! انه لأهون على الانسان ان يموت اويقتل في وضح النهار ، على ان يتم ذلك في الظلمة .. انه سيغدو ميتتين .. واحس مرة اخرى ، بموجة من الرعب المحموم الذي لا يرحم وقال وهو يصطك من البرد : ترى متى سينتهي هذا العذاب ؟

وسمع يونس يقول له :

- ان كل ساعة تمر بنا تقربنا من الخلاص .. و ..

قاطعه حنا وهو يزحف لكي يكون اقرب اليه :

- لا اعتقد ان ذلك يعني شيئا ..

تساءل يونس وهو يدعك صدره ، بعد ان فتح زرين في بجامته :

- ماذا ؟

اجاب حنا بالهدوء نفسه :

- لا اعتقد ان ذلك يعني شيئا !

قال يونس بعصبية :

- ان الزعيم يضيق الخناق عليهم ، ولا اعتقد انه سيدعهم يواصلون تآمرهم اكثر من هذا ، ان لديه الجيش والقوة الجوية ، وهو قدير على سحقهم في اية لحظة !

قاطعه حنا مرة اخرى :

– وبقدر ما يتعلق الامر بنا ، فانهم بدورهم قديرون على سحقنا في اية لحظة

تساءل يونس :

من ؟!

أشار حنا الى مقر قيادة اللواء ، حيث يقيم الشواف وكبار ضباطه ، دون ان يجيب ...

قال يونس بثقة :

– لو انهم ينوون قتلنا لكان مبيتنا الليلة تحت الارض ، لا في هذه القاعة !

اجاب حنا وهو ينتزع ابتسامة باهتة لكي يرسمها على وجهه :

– وما ادراك اننا لن ننام هذه الليلة هناك ؟

حاول يونس ان يخرج قليلا عن الدوران في هذه النقطة المظلمة ، فهمس في اذن حنا:

– اتعتقد انهم قدروا على ان يفعلوا شيئا ؟

لم يجبه حنا ، بينما واصل يونس وهو يلصق فمه في اذن زميله :

– هنالك همسات تدور في القاعة تؤكد فشل المحاولة ، وان ما كان يؤمله الخائن الشواف من تحرك مواز في بغداد ، لم يتحقق منه شيء ، وان المتامرين يجابهون الان مصيرهم منفردين .. ان المسألة مسألة وقت فحسب !

تساءل حنا :

– وماذا ينتظر الزعيم ؟ – اما كان بمقدروه عبر ساعات النهار الطويلة ان يقلبها على رؤوسهم؟

اجاب يونس وهو يعيد شد ازرار بجامته وينزلق ثانية في فراشه :

– سيفعلها وسوف ترى ..

قاطعه حنا وهو يشير غربا :

– الا يجوز ان ياتيهم الاسناد من هناك فيقلب الموازين ؟

قال يونس :

– لو كان في نيتهم ان يفعلوا ذلك لفعلوه ..

وما لبث حنا ان وجد نفسه ينساق ثانية الى الهاجس الذي يضيق الخناق عليه :

– وهل يخدمنا انتصار الزعيم في شيء ؟

كاد يونس ان يصرخ ، وهل يعتدل ثانية ويتساءل : ماذا ؟ !

اشار عليه حنا ان يخفض صوته وقال هامسا :

– سينتقمون منا .. سنكون اكباش الفداء ..

اجاب يونس بموجة حماس مفاجئة :

– ليكن فمن اجل الجمهورية والزعيم تهون الارواح ..

قال حنا بسخرية مكتومة :

– هكذا ؟!

واصل يونس بالحماس ذاته :

– ان الانسان اذا اختار طريقا فعليه ان يواصل السير عليه ، حتى لو كلفه ذلك حياته ..

لم يجد حنا أَيُما جدوى من الاستمرار في مناقشته .. ان كل ما كان يريده هو ان يجد من يشاركه الاحساس بالخطر الجاثم فوق الانفاس .. باحتمال القتل الوشيك الذي لا يعرف اي منهم متى سيقع ، ولا كيف سينزل على الرؤوس .. واحس بشيء من الحسد تجاه يونس وهو يجده يقدر ، في اللحظة المناسبة ، على ان يحدث فاصلا ، يحاول ان يقتنع به هو على الاقل، بينه وبين الخوف.

كيف يكون أبلهاً هذا الذي يعرف كيف يتحايل على الخوف ؟ ولكنه عاد فقال في نفسه: بالعكس ، ان الذكاء سلاح لعين في مآزق كهذه ، انه يكشف ويجسد ، ويضع الانسان عاريا امام مصيره .. وتمنى حينذاك لو كان بليدا إذن لَقَدِر على طرد الهاجس الذي يدمر اعصابَهُ ولو لدقائق معدودة ..

كانت الظلمة قد اطبقت تماما على القاعة عندما اشعل المصباح الوحيد الذي يتدلى من سقفها بضوئه الخافت الذي لا يكاد يغني شيئا .. وينفتح الباب لكي يتسلل منه ضابط صف وجنديان لمحهما حنا وها يحملان قصعتين كبيرتين تتضمن احداهما ارزا والاخرى مرقا ووضع ضابط الصف حزمة من الصمون الاسمر المتيبس الى جوار القصعتين ، ثم ما لبث والجنديان ان غادروا القاعة.

وقال يونس ، وهو يزيح البطانية الغامقة التي يتدثر بها :

– ها قد جاء العشاء .. الا تشاركنا الطعام ام انك ما تزال مستمرا على الصيام ؟

اجاب حنا وهو يمد عينيه لكي يعاين ما تحتويه القصعتان :

– صيام ؟

قال يونس وهو يهمّ بلبس نعليه :

– لا تُسمِه صياما .. سَمِّه اضرابا عن الطعام ، ولكن الجوع لا يرحم يا حنا .. هيا ..

تقدم الى وسط القاعة لكي يشارك المعتقلين التهام الطعام بينما ظل حنا ملتصقا بالجدار وما لبث ان سمع يونس يقول له وهو يبذل جهدا مضاعفا لازدراد لقمة كبيرة كادت ذيولها تفلت من فمه :

– ان الصمون لذيذ ، انه مليء بالنخالة .. اذا لم يعجبك الارز والمرق فان بمقدروك ان تلتهم واحدة منها ..

حاول حنا ان يرفض مرة اخرى ، ولكنه كان يحس بوخز الجوع ، وبانه لم يعد بمقدوره ان يقاوم .. وزاده اغراءا انه راى جميع المعتقلين في القاعة يشاركون في تناول الطعام بشهية ، وانه الوحيد الذي ظل بعيدا ..

وناداه يونس مرة اخرى :

– ها .. ماذا قلت ؟ أأنا ولك واحدة منها ؟

فاجابه على استحياء :

– لا .. سوف آتي لآكل معكم ..

تناول يونس بسرعة صمونة اعطاه اياها قائلا :

– هيا ، اغمس قبل الا يتبقى لك شيء !

واحس حنا وهو يتناول اللقيمات الاولى ، بشيء من التقزز ، وتحفزت معدته لكي تقذف ما تلقته من طعام ، وتصور انه سيتعرض للسخرية من رفاقه وهم يرونه عاجزا عن تناول الطعام ، وانهم قد يشكون بقدرته على التحمل كالرجال ، وان يونس اول من سيرميه بذلك، فبذل جهدا قاسيا من اجل ارغام معدته على قبول ما لابد له من قبوله ، ثم ما لبث ان عثر على حل وسط قد ينقذه من المازق ، فاخذ صمونته ، وتراجع بها صوب فراشه حيث راح يقضمها بهدوء ..

❁❁❁❁❁❁

– ٢٠ –

استيقظت سلمى متأَخرة بعض الشيء .. توقعت ان يكون امس الاحد يوم الفصل ، وان شيئا ما سيحدث ، يتصادى مع ثورة الموصل هناك في العاصمة ، فيقلب الموازين ، ويمنح الثورة قدرتها على التحقق والانتشار ، وكانت كل دقيقة تَمّر ليست بدقيقة ، لكنها اطول بكثير ، ان عقرب الساعة المعلق في صدر الصالة الداخلية لم يعد يعني شيئا .. وتحوله ببطء شديد من التاسعة الى العاشرة ، ومن الثانية عشر الى الواحدة ، ليس تغيرّاً في حساب الزمن على الاطلاق، ما دام انه لا يعِد بشيء ، لا يتمخض عن الحدث ، اويتكشف عن البشارة ..

قبل يومين فحسب كان هذا الزحف الزمني الذي يطل من مينا الساعات يعني شيئا كثيرا ، ويقرب من الهدف المرتجى .. اما الان فلربما تمنت سلمى ان يحرن الزمن ، وان تكف عقارب الساعة عن الدوان.

إن عبد الكريم قاسم يحكم قبضته على بغداد ، وصرخات مؤيديه هناك تكاد تصم الاذان .. والجيش لا يزال محافظا على تماسكه ، وهو الان على أَهبَة الاستعداد للانقضاض على المدينة لكي يطويها وهي تعاني القهر ، والحزن ، والانتظار اللامجدي لمعجزة تجيء من المجهول ..

وثمة انباء مقلقة عن غزاة ييممون وجوههم شطر الموصل من كل مكان ، وانها قد تتعرض بعد ساعات لاستباحة اخرى تقلب الموازين ، وتجعل الاخضر هشيما ..

وبحركة لا ارادية فتحت للمرة العشرين زر المذياع .. اذاعة بغداد لا تزال على حالها من اللااكتراث .. تبث اغانيها العاطفية كأن لم يحدث شيء .. تقاطعها بين الحين والحين برقية في تأييد الزعيم من القادة العسكريين او من حشود الناس .. واذاعة الثورة في الموصل تستمر مكافحة لكي توصل صوتها بصعوبة الى ابعد مدى مستطاع ، وتتحول نبرتها شيئا فشيئا ، الى ما يشبه الاستغاثة لكسر الحصار .. استفزاز تريد ان تحرك به اولئك الذين اختاروا الوقوف على الحد الفاصل بين الثورة والسلطة ، يتخوفون ان يمدوا اقدامهم خطوة واحدة خشية ان يجرفهم التيار ، اما اولئك الجيران الذين شجعوا الحركة ووعدوها بالدعم والاسناد لحظة تعلن عن نفسها ، فانهم الان يلتزمون الصمت ، ويبدو انه ليس في نيتهم – أبداً – الاستجابة للنداء الذي يقطر مرارة وحزنا .. لماذا ؟ يبدو انهم لا يؤمنون بمنطق المجازفات ، او يتعلمون من العدو الذي انتصر بالمجازفة ، او يضعون اقدامهم في ارض قد لا تكون مفروشة بالورد مامونة من المتفجرات والالغام !

وبين الحين والحين كانت زخات من الرصاص تخترق الفضاء القريب ، قادمة حينا من معسكر الغزلاني الى الجنوب ، متدفقة حينا ما من مكان اخر من البلد حيث بدا بعض انصار السلطة يثبتون اقدامهم على ما يبدو.

وتذكرت سلمى .. يوم امس كانت الثورة تحكم قبضتها على المدينة ، وكان ظهرها مغطى تماما بابناء المدينة المسلحين ، وهي تتوجه بصدرها مفتوحا ومتحديا صوب بغداد .. ولكن .. وبعد مضي يوم بكامله على الوقفة المتماسكة ، وبعد ان لم يحصل ما كان مؤملا حدوثه في بغداد ، ، امتدادا للثورة وتصاديا معها ، بدأ الموقف يهتز واصبحت المدينة هدفا قد يتعرض للضرب في اية لحظة ، واعلن عن جائزة مقدارها عشرة الاف دينار لمن ياتي بالعقيد الشوّاف حيا او ميتا .. وثمة ما تخمنه سلمى : ان الزعيم كان ينتظر ان يقضي على الثورة من الداخل ، فلما تأبت المدينة الا ان تواصل تحديها . فانه ربما يلجأ الى ضربة قد تكون اكثر قسوة مما يتوقعه الجميع ..

وسمعت اباها يناديها :

– ماذا وراءك يا سلمى ؟

كان يجتاز عتبة غرفة نومه باتجاه الصالة الداخلية لكي يقترب اكثر من المذياع ..

– ارفعي صوته قليلا.

قال وهو ينحني لكي يلتقط الاصوات المختنقة ، المشوشة ، لاذاعة الموصل ..

– لا شيء يا ابي ..

– حاولت ان اغفو قليلا فلم استطع ، لعن الله الارق ، انه يكاد يقتلني بالصداع ..

قالت سلمى وهي تقرب كرسيا :

– اجلس ، ساذهب لتنظيف المطبخ ، فلعلك تسمع شيئا ..

طوح بيده اليمنى ، ثم ما لبث ان حشرها في جيب روبه البني الغامق لكي يخرج مسبحته الاثيرة الحمراء ، ويدعك حباتها وهو يسمر عينيه في لوحة المذياع الكبير الذي يعلو دولابا خشبيا اسود في زاوية الصالة ، وحاول ان يرفع صوته لكي يصل الى سلمى :

– هل سمعت زخات الرصاص ؟

اجابته وهي تدلك قدرا من الفافون الابيض :

– انها اقرب مما نتصور ..

– لعلها هنا في المعسكر ..

– ليتها اقتصرت على المعسكر وحده ..

لم يسمعها عبد الرحمن جيدا فهتف :

– ماذا ؟

– انها تأتي من اماكن اخرى ، وليس من المعسكر وحده ..

دَعَكَ خرز المسبحة وهو يدمدم :

– اذن ما الذي ستفعله بغداد ؟ واين وعود دمشق ؟ اين ؟

وأَحسَ بموجة من الانقباض تكاد تعتصر قلبه ، كآبة ثقيلة لم يذق لها طعما من قبل .. وفي محاولة للهروب منها ، لكسر طوقها .. لاستعادة شيء من فرحه القديم .. فرحه الذي ارتقى عبر اليومين السابقين مسالك وشعابا جبلية صعبة ، معقدة ، وهو يتقافز كوعل بري سعيد ، لكي يقف لدقائق عند احدى القمم ، ويطل بنشوة عارمة على كل الذي يجري تحت .. غادر الصالة الى جلسته الاثيرة في الشرفة .. قبالة الخضرة ، والورود البرية ، والسماء المفتوحة ..

دهش اذ لم يجدها ترحب به او تقول له شيئا .. لطالما حدثته بالف حديث وحديث ، ولطالما قالت له كلمات وجملا مما لا يقوله انسان او مذياع او ايما شيء اخر .. تعابير ما صنعتها الاحرف والاصوات ، ولا تلبستها كثافة المادة الملموسة .. انما كانت تحكي بلغتها الخاصة ، وهي بحق لغة شفافة لانها تصوغ معانيها بالروائح والالوان ..

كانت ثمة باقة من شقائق النعمان التي تقطر حمرة ، وتتلوى سوقها بدلال ، تنتشر قريبا من حافة الشارع ، ويبدو ان عجلةً ما عسكرية مسرعة قد انحرفت قليلا عن الطريق الاسفلتي باتجاه الحافة ، فطوحت بالسوق والاوراق ، وها هي الان تحاول ان تنهض مرة اخرى ، دون جدوى ، لقد تكسرت السوق بما فيه الكفاية ، وتبعثرت حراشف الشقائق ذات الحافات السوداء ، فلم يعد بمقدورها ان تنهض مرة اخرى.

ولمح سيارتي جيب تمرقان الى المعسكر ، واخرى تتدحرج من هناك موغلة في الشارع صوب المدينة ، وقال في ذات نفسه : ان هذا لا يعني شيئا ، ولكن الذي يقلق هو زخات الرصاص .. اذا كانت المدينة في قبضة الثوار فمن الذي يجرؤ على ان يلعب بالرصاص ؟

وسمع صوت طائرة تئز من مكان بعيد .. ثم ما يلبث ازيزها ان يزداد لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة .. ومد عينيه هنا وهناك وكأنه يريد ان يعرف المكان الذي تنساب فيه الطائرة ، والجهة التي قدمت منها .. ثم ما لبث ان تاكد له انها قادمة من هناك .. من الجنوب .. وما لبث ان تاكد له ايضا انها ليست طائرة واحدة ولكنهما اثنتان ..

واحس بقلبه يرتجف قليلا ، وبدقاته تزداد تسارعا وعددا .. وتساءل : ما معنى هذا ؟

وللحظات اختفت الطائرتان عن مدى رؤيته ، فاطمأن بعض الشيء ، لكنهما ما لبثتا ان ظهرتا من جديد ، اقرب هذه المرة ، واشد اثارة وبريقا .. وخيل له انهما تتباطآن قليلا ، فأمعن النظر ، فتأكد لديه ما راه بخياله ، بل انه راهما بوضوح ، وكأنهما تتوقفان بالكلية عن الحركة ، وتتسمران في مكان ما من السماء القريبة ، للحظات ، ثم ما تلبثان ان تقذفان بسيل من الصواريخ التي تكاد السنتها تمتد لكي تصل إلى المكان الذي يقف فيه ، واحس لدهشته ، انه يكاد يلمس ذيول النار ، ثم ما لبثت اصوات تهز الاعصاب ان تفجرت في السماء والارض المحيطة ، اعقبتها موجات كثيفة من الدخان الاسود المتصاعد بعنف من ابنية المعسكر وباحاته .. ومع النار والدخان ، كان يتخيل انه يسمع اصواتاً بشرية ، بعضها ينادي ، وبعضها يصرخ ، وبعضها يستغيث .. ربما .. ولم يلتفت الى سلمى التي هرعت مصفرة الوجه ، تسأله عما يجري، ولكنها اعادت السؤال وهي تصرخ :

– ماذا يا ابتاه ؟

استعاد عبد الرحمن شيئا من هدوئه بعد ان خفتْ الاصوات ، ولم يتبق الا الدخان الذي يندلع بغزارة من مكان ما في المعسكر لكي ما يلبث ان يسودّ صفحة السماء ..

– طائرتان قادمتان من بغداد قصفتا المعسكر ..

تراجعت سلمى لكي تسند ظهرها الى جدار الشرفة خشية ان تخونها قدماها ، وقالت بصوت مرتجف وهي تكاد تسمع وجيف قلبها :

– ليس غير مقر القيادة .. ان احساسي لا يخطيء ..

وتراجع عبد الرحمن هو الاخر لكي يجلس على مقعده مرة اخرى وهو يتساءل :

- اتراه لا يزال هناك ؟

اجابت سلمى :

- واين يكون اذن ؟

عاد عبد الرحمن لكي يدعك مسبحته وهو يقول :

- اذن فقد قتلوه .. ومعنى ذلك ..

قاطعته سلمى وهي تتشبث بالمجاهيل :

- ليس لأحد ان يجزم .. ثم من قال بان الطائرتين اصابتا هدفهما بدقة ؟!

اجاب عبد الرحمن وهو يعاني من انقباض ساحق :

- قلبي يقول ذلك يا ابنتي !

طرفت عينا سلمى للحظات ، وارادت ان تقول شيئا ، ولكنها آثرت الصمت !

ونهض عبد الرحمن وهو يقول :

- هيا ، لندخل ، فاني احس بشيء من البرد يتسلل الى عظامي ..

وما لبث صوت سيارة اسعاف ان اخترق سمعهما بحدة ، وما هي الا لحظات حتى كانت السيارة تجتاز الشارع مسرعة ، تحرسها سيارة جيب ينتصب فيها ضابط برتبة مقدم يحمل رشاشته .. واوغلت السيارتان باتجاه المدينة ، ثم ما لبثتا ان غابتا عن العيان ..

❁❁❁❁❁❁

- ٢١ -

انفتح باب القاعة بعنف ، ولمح حنا جرجيس حشداً من الجنود والبنادق الرشاشة تتراقص بايديهم وهم يصرخون .. فاجتاحته موجة قاسية من الرعب ، وانكفأ على نفسه متقوسا وهو يدعك بطنه بيديه ، حيث تفجر الم مفاجيء ، وقال في نفسه : اذن فانه القتل ، فعلام عذاب الايام الطويلة ؟ والتفت إلى يونس عتالة بنظرة غائمة ، وكأنه يريد ان يقول له : الم اقل لك ؟ انهم سيقتلوننا منتصرين او منهزمين ، وان ضربة بغداد ستجعل منا اكباشا للفداء ، لكنه فوجيء بيونس وهو ينهض من مكانه قافزا ويصرخ كالمجنون :

- اذن فقد قتل الخائن ؟

ولاول مرة اتيح لحنا ان يرى ثلة الجنود وهي تتوغل في القاعة اكثر ، ورآهم وهم يرقصون ، ويغنون ، وتتردد بين لحظة واخرى عبارة ما سرعان ما تبينها : " ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة !! " ، ثم تبين ان بعضهم يحمل بالفعل حبالا تتفاوت اطوالها ، راحوا يلوحون بها في الفضاء ، وهم يرددون عبارتهم تلك ، وسمع احدهم يصرخ :

– ماذا تفعلون هنا ؟ هيا اخرجوا .. ان عصابات المتآمرين لا تزال تسيطر على البلد ، وقد آن الاوان لسحقها .. الموت لاعداء الشعب ..

تجمع المعتقلون وسط القاعة ، واحاطوا بالجنود .. لم يصدقوا انفسهم اول الامر .. كان السهر والخوف والاعياء قد احدث فاصلا بين وعيهم وبين ما يرونه ويسمعونه ، ثم مالبثت موجة حماس مفاجئة ان شملتهم جميعا ، فراحوا يهتفون مع الجنود ، وراهم حنا الذي كان حتى تلك اللحظة ملتصقا بالجدار وهم يرددون معهم : " ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة " ، فلم يصدق نفسه هو الاخر !

اذن فقد حُرّرنا ؟! ونهض قائما في هدوء وهو يقول في نفسه : ليس هنا .. ليس هنا .. واجتاز القاعة ، ولوح بيديه وهو يحاذي التظاهرة الصغيرة في طريقه الى الباب ، لكنه ما لبث ان تذكر ، فعاد ثانية ، وتقدم من احد الجنود ، وهمس في اذنه :

– كيف سنرجع الى البلد ؟ هل ثمة ما يقلنا الى هناك ؟

ولمحه يونس ، فكفَّ عن الصراخ ، وسحب نفسه بصعوبة من بين زملائه متوجها حيث يقف :

– ماذا يا حنّا

اجاب هذا :

– كنت اسأَلُه كيف سنرجع الى البلد .. ان الطريق لا يزال غير مأمون .. فهل هناك سيارات لنقلنا ؟

قال يونس هو يهتز من الضحك :

– سيارات ؟ اتظل بورجوازيا حتى وانت تناضل ضدهم ؟

اجاب حنا وهو يجره من كتفه :

– ولكننا مرهقون يا يونس ، ولن تقوى سوقنا على حملنا اربعة كيلو مترات او خمسة ..

قال يونس وهو يبعد باصابعه سيل العرق الذي اخذ يتدفق من جبهته الضيقة ، ويرشه على الارض :

– السيارات كثيرة .. لا ريب ان هناك عشرات من اللوريات تقف عند الشارع.

وسمعه الجندي فقال وهو يريح عقب بندقيته على الارض :

– بكل تاكيد .. انها كثيرة جدا .. وهي تنتظركم هناك ... واشار الى شارع الغزلاني ..

قال يونس وهو يهم بالعودة لكي يواصل الهتاف والاهازيج مع رفاقه :

– اما أَنا فسأَرجع مشيا .. ان هدفي ليس بعيدا ..

سأَله حنا :

– وأهلك ؟ انهم بانتظارك الان بكل تأكيد ، وهم قد لا يصدقون انك نجوت من موت محقق..

اجاب يونس وهو يتوغل اكثر في قلب دوامة الصراخ :

– ليس قبل ان اصفي حسابي !!

فكأن خاطرة ما كانت غائبة عن عقل حنا جرجيس ، التمعت اللحظة ، على حين غفلة، وتبدت الرؤية واضحة امام عينيه كشيء متجسد ، وقال في نفسه : انا كذلك عندي حساب ساسعى الى تصفيته ، ولكن ليس قبل ان اطمئن على زوجتي واولادي ..

وصاح وهو يكافح لكي يوصل صوته الى يونس :

– الا ترى ان من الاولى ان نرجع معا ؟ لقد جئنا سوية ، وهكذا يجب ان نعود .

لم يسمع يونس كلمة مما قال ، ولمحه حنا وهو يتحدث الى جندي يقف قريبا منه ، واذ كان الجندي يرى صعوبة في ادراك ما يريده يونس ، جره هذا من ذراعه وقال له :

– اذا لم تستطع أن تعطيني بندقيتك ، فحربتها على الاقل ..

قال الجندي وهو يتشبث بالبندقية اكثر :

– ولكني مسؤول عنها.

ضحك يونس وهو يربت على كتف الجندي :

– أية مسؤولية هذه ؟ وامام من ؟

لم يجب الجندي ، بينما واصل يونس :

– لقد افلت الزمام يا ابا خليل ، ولم يعد بمقدور احد اليوم ان يحاسب احدا ..

قال الجندي :

– ولكن ..

عاد يونس لكي يجمع العرق المتناثر على جبهته ، وينثره بسبابته على الارض ..

– لا تقل لكن .. فاننا جميعا ندافع اليوم عن الزعيم .. ونناضل اعداء الجمهورية .. اعطني حربتك ..

لم يجد الجندي بُدّا من انتزاعها من البندقية ، وتسليمها ليونس ، وصرخ هذا وهو يلوح بها في الهواء :

– الموت لاعداء الجمهورية .. يحيا الزعيم ..

وردت عليه حزمة من الاصوات المبحوحة :

– يحيا الزعيم ..

وإذ رأى حنا الا فائدة من اقناع زميله ، وهو يكاد يندمج في الدوامة ، ويغدو جزءا منها يصعب فصله .. عاد لكي يخطو صوب الباب مرة اخرى .. ووقف هناك للحظات ، لكي يطل على مشهد دوامات الصراخ ، والرقص ، والتلويح بالبنادق والحراب والحبال ، تكرر نفسها هناك

وهناك في باحات المعسكر وممراته وعند حافة شارع الغزلاني حيث كانت تقف فعلا عدة لوريات تنتظر من يمتطيها الى المدينة ..

واحس بشيء من الارتياح وهو يطمئن على وجود السيارات وادرك انه لم يعد يفصله عن بيته سوى دقائق معدودات ، لكن القلق ما لبث ان اكتسحه وهو يتصور هؤلاء جميعا ، يؤثرون البقاء لساعة او ساعتين هنا ، كما قرر يونس ان يفعل .. وضيق عينيه وهو يمسح زجاج نظارته بطرف رباطه الاحمر المتجعد ، فرأى هذه الدوامات البشرية تدور على نفسها بحركة جنونية ، وتضرب اقدامها بالارض ، وتلوح بايديها ، وبما تحمله هذه الايدي : بنادق وحبالا وعصيا وسكاكين وبلطات .. ورآها وهي تتسع شيئا فشيئا بما ينضاف اليها من اجسام تتدفق عليها من كل مكان ، بالخاكي والملابس المدنية على السواء.

الصرخات المحمومة نفسها ، والرغبة العاتية بالانتقام ، والتعطش الذي يكاد المرء يلمسه .. للدم .. والنداءات المبحوحة بالجمهورية والزعيم .. وهَّمَ حنا ان يتقدم لكي يلامس واحدة من هذه الدوامات ويندمج فيها . وهناك يطلق صرخة كانت تحتبس في اعماقه اياما طوالا .. وكان يتمنى ان يفرغ في هذه الصرخة كل عذاباته ومخاوفه التي اكلته كمناشير حادة لا ترحم عبر ايام الرعب تلك ... ولكنه رأى ، في اللحظة الاخيرة ، ان وضعه لا يسمح له بهذا، وان عليه ان يظل بعيدا عنهم بعض الشيء .. وراح يطمئن نفسه ، وكانه يتمنى لو يصل حلم يقطته الذي يتشكل في داخله ، اليهم .. الى هؤلاء المناضلين الذي يعرفون كيف يعبرون عما يعتمل في نفوسهم .. يتمنى لو يتحول هذا الحلم الى صوت .. الى تشخيص مشهود يتقدم اليهم لكي يقول لهم : ان حنا جرجيس ليس باقل منكم رغبة في الانتقام ، ومحبة للجمهورية وزعيمها .. ولسوف ترون ..

وسرعان ما تذكر اهله مرة اخرى ، وقال وكانه يقرّع نفسه : ماذا تفعل هنا وهم لا يعرفون أَحيٌ انت ام ميت ؟ اما يكفيهم عذاب اليومين الفائتين ؟

وبقرار اكثر حزما هذه المرة قرر ان يتجه الى اقرب سيارة عسكرية عله يقنع سائقها بان يوصله ومن يرغب في التوجه الى المدينة ، لكي يبلغ به برج الساعة قريبا من الزقاق الذي يقبع فيه بيته ، هناك حيث تنتظره الزوجة والاولاد ..

ولم يشأ ان يخطو اخيرا صوب هدفه قبل ان يطل من باب القاعة لكي يعرف ما الذي يفعله يونس ، فلعله يرغب اخيرا في العودة معه ..

كان يونس عتاله الان يقف قبالة الدوامة البشرية التي نال منها الصراخ ، يتطاير الشرر من عينيه الضيقتين ، ومع الشرر الغاضب كان بمقدوره ان يرى شيئا اخر ليس من السهولة تبينه للوهلة الاولى ، ولكن بالشم ، ربما ، يستطيع المرء ان يهتدي اليه .. رائحة الدم ..

وكان يونس يقول كلمات متقطعة .. مبحوحة .. غير واضحة .. وكان يستعين على توصيلها للآخرين بالاشارة ، والايماءة ، والحركة .. وكان يجد صعوبة كبيرة وهو يواصل مهمّة يبدو انه ما جربها من قبل قط .. بينما استمرت قطرات العرق تنبجس من جبهته الضيقة بغزارة ، وتنزلق صوب بعضها ، لكي ما تلبث ان تشكل ساقية صغيرة تنساب صوب الذقن ، وتنحدر من هناك ، دون ان يكلف يونس نفسه عناء تجميعها باصبعه ورشها على الارض كما كان يفعل في الدقائق الاولى ..

واستطاع حنا ، وهو يمد رأسه اكثر عبر البوابة ، ان يلتقط بعض الكلمات بصعوبة .. عبد الرحمن .. خائنة .. متآمرون .. العقاب .. اذناب هاشم عبد السلام .. لقد ان الاوان ايها الرفاق .. هيا .. هيا .. يحيا الزعيم ! لتحيَ الديمقراطية .. سُحقا للمتامرين .. وما تلبث صرخاته ان تتصادى من خلال حناجر الاخرين ، فتقرع الجدران ، وتتدفق لكي تتلاشى في الفضاء ..

وانتصب قبالته ، للحظات ، هاشم عبد السلام .. بلحمه ودمه .. بجبته وعمامته .. بلحيته القصيرة وعينيه السوداوين الواثقتين .. بنظراته التي كان يحس ازاءها دوماً أنها تلمس الارض والاشياء ، ثم ما تلبث ان تتجاوزها صوب المجهول الذي لا يلمس ولا يرى ..

وكاد ان يصرخ : هاشم ؟ ولكن هذا اختفى فجأة ، كما ظهر ، وها هو حنا يجد نفسه وحيدا ، وهو يقول : لا بأس يا هاشم ، فماهي الا ساعة او ساعتان.

وادرك ان يونس عتاله ليس في نيته ان يرجع معه ، وانه الان يفرض نفسه على حشد من المتعطشين للانتقام ، وانه قد يسوقهم بعد قليل الى مكان ما ، لكي تجد الرغبات المكبوتة فرصتها للتحقق .. وحنا لا يعرف هذا المكان ، لكن زميله والمحيطين به سيذهبون اليه حتما ، وسيجد يونس نفسه وقد تحقق بما كان يحلم به دوما ، ليس فقط للانتقام ممن كان يجد نفسه دونهم مكانة ، ولكن تولي زمام القيادة لحشد من الناس يتحركون بامره لتحقيق مهمة ما.. ان يونس قد غدا اخيرا شيئا امام نفسه وامام الناس ..

وقال حنا وهو ينفصل عن المشهد بصعوبة ، وينحدر عبر المرتفع الطيني الواطيء صوب حافة الشارع ، حيث تقف اللوريات : انه ليس وحده بالتاكيد .. ولسوف يعرف .. يقينا سوف يعرف ..

❁❁❁❁❁❁

- ٢٢ -

كـان عبـد الـرحمن يقـف فـي الشـرفة المطلـة علـى الشـارع ، يعتصـره احسـاس قـاس بالاكتئـاب ، حيث لم يتبق على موعد الافطار سوى اقل من ساعتين ، حينما طرقت سمعه اصوات مكتظة ، وصرخات مبحوحة ، تقطعها بين لحظة واخرى طلقات الرصـاص ، فمد رأسه صوب المعسكر حيث يتلوى الشارع ويغيب بين مرتفع سكة الحديد ، والحقول ذات السنابل التي لم تكتمل بعد .. فلم يستطع ان يتبين شيئا .. لكن الاصوات تقترب ، والصرخات تزداد تجسدا .. ثم ها هو الان يستطيع ان يلتقط منها بعض الكلمات التي لا تكاد تقذف في الفضاء حتى تتلوها حفنة اخرى من زخات الرصاص : الديمقراطية .. الخيانة .. الزعيم ..

لم تمض سوى دقائق فحسب حتى وجد نفسه يهتف : ها هم قادمون .. انها تظاهرة اذن .. الى اين ترى هم ذاهبون ؟ ! وخمن ان هدفهم ربما يكون مركز المدينة : باب الجديد ، او شارع الفاروق .. ولكنه احس برعدة خفيفة تسري في اوصاله اذ لَمَعَت في ذهنه تحذيرات صهره عاصم ، الا يجوز ان ؟ ولكنه حاول ان يستل الخاطرة من ذهنه ، وان يطوح بها بعيدا ..

وخرجت سلمى لكي تساله :

- ما هذا يا ابتاه ؟!

- ادخلي ، فانه لا يحسن ان يروك هنا ..

تشبثت بمكانها ، وهمت بان تساله مرة اخرى ، ولكنها ما لبثت ان تلقت الجواب بنفسها هذه المرة ، فها هي طلائع التظاهرة تلوح على بعد عدة امتار ، والصراخ يزداد سعارا، وطلقات الرصـاص لا تكف عن اختراق الطبقات القريبـة مـن الفضـاء .. وثمـة كلمـات مبحوحـة ولكنهـا واضحة تماما ..

- الشيوعيّون ..

قالت بصوت منخفض وهي تحس برجفة تتغلغل في شرايينها ، وتصفعها بموجة من البرد القاسي ..

- ادخلي .. فها هم على بعد خطوات ..

لم تستجب لـه مرة اخرى ، وتشبثت بمكانها وهي تطل لكي ترى قبالتها حشودا من الناس ، مدنيين وعسكريين ، يطوحون بالحبال ، ويلوحون بالبنادق والحراب والعصي والسكاكين ..

وقال عبد الرحمن وهو يبتلع ريقه بصعوبة :

- اخشى ان تصدق تحذيرات عاصم ، فقد رآنا بعضهم ونحن نصلي الجمعة خلف هاشم عبد السلام ..

فكأنها استمدت من اسم الرجل قوة ما كانت تمتلكها قبل لحظات ، وها هي ذي تستعيد توازنها ، وتطرد الرعدة والبرد قبل ان يلفا كيانها تماما ..

- ولكن ...

قاطعها ابوها :

- لست خائفا ولكنني اخشى ان ..

لم يستطع ان يتم كلامه ، فقد قطعته صرخة مبحوحة لكنها حادة ، موجعة ، منذرة بشيء كسواد الليل ..

- الخونة !!

نظر امامه ، فيما وراء السور الواطيء ، وازاح عن عينيه بصعوبة سحابة ضبابية كادت تحجب عنهما الرؤية .. ها هو ذا احدهم .. شاب دون الثلاثين من عمره ، ذو شعر خفيف وجبهة ضيقة وعينين لا يكاد المرء يعثر عليهما الا بصعوبة ، ورآه وهو يجمع باصبعه قطرات العرق المتناثرة على الجبهة ، ثم يرشها على الارض ، التفت الى الحشد الذي تتعالى صرخاته كأَفاعٍ سوداء تتلوى في الفضاء ، قبالته تماما ..

- لحظة واحدة ايها الرفاق .. فها هو ذا احد اوكار الخيانة ..

تعالت الصرخات مرة اخرى .. التمعت حراب .. وتلوّت حبال ، واصطكت خناجر وسكاكين .. وأَزَّ الرصاص مختنقا مبحوحا هو الاخر كاصوات القادمين ، مختلطا بكلمات لا تكاد تسمع ولكنها تضرب كالرصاص ..

صرخ عبد الرحمن :

- ادخلي ..

لم يكن يعرف انها تركت الان المكان منذ اكثر من دقيقة ، والتفت لكي يواجه الشاب ذا الجبهة الضيقة والعينين الصغيرتين ، وصرخ ثانية :

- لسنا خونة ، ولن اسمح لك بان تقولها مرة اخرى

رد يونس سعيد عتاله بصوت متكسر :

- خونة .. ومتآمرون ..

وهم جمع من المتظاهرين بالتقدم اكثرصوب الباب الخارجي ، فاشار اليهم يونس ان يتريثوا قليلا :

- مهلا فان اوكار الخيانة لا تخلو من سلاح .. لا اريد ان اضحي باي واحد منكم !

قال عبد الرحمن وهو في مكانه من الشرفة مكشوفا امام المتظاهرين :

- لسنا نحن الخونة على اية حال .. هنالك حكومة تقرر وتدين ، ليست المسالة فوضى.

ضحك يونس وهو يربت على الحربة :

- الان .. نحن الحكومة ..

ثم ما لبث ان صرخ :

- كلنا فداء للزعيم .. نموت وتحيا الديمقراطية ..

ردت عليه الحناجر المبحوحة بالكلمات نفسها .. وفكر عبد الرحمن .. لا بد من كسب الوقت ريثما امسك بندقيتي ..

تراجع قليلا لكي يكون اقرب الى الباب المفضي الى الصالة ..

- لكم ان تتاكدوا ، وستعرفون جيدا اننا لسنا خونة ..

تقدم يونس خطوتين وهو يتساءل :

- فمن كان يصلي خلف هاشم عبد السلام قبل ثلاثة ايام ؟

اجاب عبد الرحمن وهو يزحف بشكل غير ملحوظ صوب ثغرة الباب :

- وماذا في ذلك ؟

قال يونس :

- هاشم خائن ، وسوف يلقى جزاءه ، الا تدري انه اشترك في الاعداد لمؤامرة الشواف وساهم فيها ؟

- ولكن ..

قاطعه يونس بصوت اقرب الى الصراخ :

- لقد هاجمنا في خطبه بما فيه الكفاية .. كان يحرض علينا ..

ارتفع صراخ المتجمهرين خلفه كرة اخرى ، وشقت كلمات قاسية طبقات الهواء لكي تنقض على عبد الرحمن كالسكاكين ..

ونادى هذا بصوت مكتوم :

- سلمى .. البندقية في درج خزانتي ، ائتني بها وضعيها وراء الباب ..

وعاد يونس لكي يهديء الصراخ قليلا ويلتفت الى عبد الرحمن :

- لست وحدك !

تساءل عبد الرحمن ودقات قلبه تتصادى كمطرقة تضرب في مكان بعيد :

- ماذا ؟

قال يونس وهو يرسم على وجهه ابتسامة يصعب ادراكها :

- ابنتك !

صرخ عبد الرحمن دون ارادة منه :

- كف عن ذلك ، فان للنساء حرمة ..

قهقه يونس :

– حرمة ؟ انها خائنة يا عبد الرحمن .. ومتآمرة ..

صرخ عبد الرحمن مرة اخرى :

– قلت لك كف عن هذا ..

لم يأبه يونس لتحذيره :

– لقد شوهدت هي الاخرى تصلي وراء هاشم ، ولن يمضي ذلك دون حساب .

اجاب عبد الرحمن وهو يحس بشيء كنذير السوء ..

– كثيرات غيرهن صلين وراء هاشم.

قال يونس وقد اصبح الان لصق الباب الخارجي :

– كلهن سنحاسبهن ، ولن يفلت من قبضتنا احد ..

وانفجرت الاصوات الصارخة مرة اخرى .. وتلَّوت الحبال .. وازت زخات الرصاص .. واحس عبد الرحمن بخطوات مسرعة تذرع الصالة وبصوت ارتطام خفيف وراء الباب الموارب ، وما لبث ان تحسس بيده اليسرى بندقيته القديمة ، فاحس بشيء من الاطمئنان.. وهو يعرف جيدا ان ليس بمقدوره مجابهة خصمه ، لكنه سيعرف كيف يدافع عن كرامته وشرف ابنته .. ولن يكون بمستطاع الشيوعيين ان يصلوا اليهما احياء ..

وصرخ يونس :

– خير لك ان تفتح الباب

تغافل عبد الرحمن عن طلبه ، فاردف هذا وهو يضرب بقبضته الباب الحديدي :

– افتح .. فنحن مكلفون بتفتيش الدار .. ثم ان عليكما ان تُسلما نفسيكما .

تراجع عبد الرحمن خطوتين ، واصبح الان يقف في فتحة الباب تماما ، ونظر بطرف عينه لكي يتاكد من البندقية ، وقال متحديا :

– لن افتح ، فلسنا متآمرين ..

– اذا لم تفتح انت فسوف نعرف كيف نفتح نحن ، ولسوف نقلب الدار على رأسيكما.

كان صبر المتظاهرين قد نفد ، وهم منذ دقائق يتحفزون للانقضاض فجاءت صرخة يونس وكانها الاشارة ، وخلال لحظات تدفق الشيوعيون على الحديقة مجتازين السور الواطيء بسهولة ، وتقدم احدهم لكي يفتح الباب الحديدي.

ودخل يونس ومن ورائه موجة اخرى من المتظاهرين ، وصاح بما تبقى له من قدرة صوتية :

– دعوا سلمى .. فانني ساحاسبها بنفسي ..

وللحظـة ، عـادت لكـي تتشـكل فـي ذهنـه الصـورة التـي ارتسـمت خطوطهـا هنـاك فـي المعتقل. وهـا هـو الان وجهـا لوجـه امـام التجربـة .. ولكـن كيـف يشـكم هـؤلاء ، وكيـف يحظـى ببغيته؟ على اية حال فانه قدير على تنفيذ جانبها الاخر إن اقتضى الامر ..

واعاده الى الواقع صوت رصاصة تئز قريبا منه ، ثم ما تلبث ان تستقر في ذراع واحد من المهاجمين كان يسعى لاقتحام الشرفة باتجاه الصالة .. وسمع الجريح وهو يصرخ :

– انهم يقاوموننا ..

وما لبثت ان قطعتها صرخة يونس المبحوحة :

– اقتلوه ..

كـان عبد الرحمن قد اوصد بـاب الصـالة ، وتحـول الـى غرفة الضيوف لكي يتخذ من نافذتها المطلة على الحديقة متراسا ، وراح يضرب .. تمكن من قتل اثنين من المهاجمين وجرح اخر ، ولكن صلية رصاص تمكنت من تفتيت قفل الباب الخشبي ، فدفعه المتظاهرون بسهولة وانـدفعوا الـى الـداخل .. ومـا عتمـت الصـالة والممـرات ان امـتلأت بهـم .. كانـت صـرخاتهم المتعطشة للدم تعْول .. وزادهم تعطشا ، قتل وجرح عددا من رفاقهم ..

وقبل ان يتـاح لعبد الرحمن ان يلتفت لكـي يـدافع عـن نفسـه استقرت عدة طلقات فـي ظهره سقط على اثرها مضرجا بدمائه ..

وانتهـز يـونس فرصـة انشـغال بعـض رفاقـه بمهاجمـة عبـد الـرحمن ، وانهمـاك بعضـهم الاخر بنهب الدار ، فاخذ يسعى كالمجنون قافزا من مكان الى مكان ، ومن غرفة الى اخرى لكي يمسك بسلمى ، وعندما انتهى به المطاف الى المطبخ رآها واقفة هناك وهي تمسك بسكين ذات نصل حاد.

صرخ :

– متآمرة ..

وتجسد في ذهنه مرة اخرى الحلم الذي نسجت خيوطه هناك ..

قالت سلمى وهي تحكم قبضتها على السكين :

– لن تصل الي وانا حية ..

تقدم يـونس خطوات ومـد يـده بالحربـة متوعدا .. لكنهـا تراجعـت صـوب الجـدار وهـي تحتمي بالسكين ، واراد يونس ان يخطو الى الامام لكي يضيق الخناق عليها وهو يقول في نفسه انهم منهمكون الان بسـلب الاثـاث ، وقـد يسـتغرق ذلـك وقتـا ، لكنـه مـا لبـث ان فـوجيء بزخـة رصاص تخترق فضاء المطبخ ، وبدفقة من رفاقه تنتشر في المكان وتحيط بسلمى ..

ترنحـت هـذه للحظـات ، وكـادت ان تسـقط ، لكنهـا تشـبثت بالجـدار ، وقـال يـونس فـي نفسه : لا باس ، فثمة الجانب الاخر ، ولم تنته مهمتي بعد ..

– اليّ بحبل ايها الرفاق ..

نادى بصوت متيبس ..

طوحت الحبال في الهواء مرة اخرى ، والتمعت الحراب والسكاكين ، وازت ثلاث طلقات من بندقية عتيقة ، ووجد يونس بين يديه كومة من الحبال. وقال احد الرفاق :

– دعوها ، لقد قتلنا اباها .. وهذا يكفي ، فهيا بنا لتصفية بقية الاوكار ..

صاح يونس :

– كلا فان العقاب لم ينته بعد ..

كان لحظت ائذ قد فقد كل ابعاده وخصائصه البشرية ، واستحال وحشا كاسرا .. تمطت فتحتا منخريه على مداهما لكي تشبعا من رائحة الدم .. وكان يعرف ذلك جيدا .. يعرف انه لم تتبق له اية علاقة بالانسان ، وانه الان شيء اخر تماما .. وان عليه ان يندفع في الطريق الى غايته .. فماذا بعد القتل ؟ ماذا اشد فتكا من القتل ؟!

❁❁❁❁❁❁

– ٢٣ –

لم يتوقف لكي يجيب على السؤال ، ولكنه انقض بالحربة على فريسته فوجه اليها ضربة قاسية على ذراعها الايمن جعلت يدها تتراخى فتسقط السكين .. ولم تستطع ان تتحمل الالم ، فما هي الا لحظات حتى انزلقت على الجدار لكي ما تلبث ان تستقر على الارض تكاد تفقد قدرتها على الوعي .. بينما كان ينبوع الدم قد بدأ ينزف من الذراع ..

وتناول يونس حبلا غليظا ، ولوى معصميها وهو يقربهما من بعضهما ، ثم ما لبث ان احكم وثاقهما بطرف الحبل ، وتأكد اكثر من مرة من احكام الشد ، قبل ان ينهض ثانية وهو ينفض يديه ويرتعد ..

كان يغمره احساس تتناوح فيه كضربات الامواج العاتية ، الغبطة ، والعنف ، والحقد، والتشفي ، والانتصار .. ونادى كالمخمور :

– اسحلوها .. وراح يقهقه والرذاذ يتطاير من فمه ، بينما الجبهة الضيقة تستقبل زخة اخرى من زخات العرق الغزير ..

انقض عدد من رفاقه لكي يمسكوا بطرف الحبل ، وكانهم كانوا ينتظرون الاشارة ، واحست سلمى بعذاب العالم ينقض عليها دفعة واحدة وهي تكافح لكي تظل في مكانها ، لكنها كانت تحاول المستحيل ، فما هي الا لحظات حتى ارغمتها شدة عنيفة من الحبل الذي يمسك

بمعصميها جيدا ، على ان تغادر مكانها عند اسفل الجدار ، وعادت لكي تكافح بصعوبة تفوق طاقتها لكي تمضي مع الشد وهي لاتزال قاعدة ، ولكن شدة اخرى عنيفة من الحبل جعلت رأسِها يهوي الى الارض فيرتطم بعنف ، في نفس المكان الذي اعتادت ان تقف فيه لكي تغسل صحون الطعام ، وانطلقت منها آهة طويلة ، مكتومة ، مترعة بالعذاب ، على غير ما ارادة منها ..

وكانت لا تزال تملك شيئا من الوعي وجسدها يمضي لكي يجتاز باب المطبخ صوب الصالة الداخلية .. فتحت عينيها للحظات فلم تستطع ان تميز المكان جيدا ، وقالت في نفسها : لماذا هو خال من اي شيء ؟ اين ذهبت المقاعد الممتدة ، والوسائد ، والبسط والسجاد ؟ .. ولمحت اشباحا تركض هنا وهناك ، تحمل اشياء ثقيلة ، وتهرع مغادرة الدار ... وما لبثت ان اغمضت عينيها وجسدها يجتاز باب الصالة باتجاه الشرفة ... وتذكرت في طبقة ما من وعيها البعيد ان ثمة عددا من درج السلم يفصل بين الشرفة وبين الشارع القريب ، صرخت بصوت مكتوم لم يكد احد يسمعه ، وما لبث ان تبدد في دوامة الصراخ ..

كان يونس يتقافز كالمجنون ، وهو يدفع جموع المشاهدين ذات اليمين وذات الشمال لكي يفسح مكانا للجسد المنزلق على الارض ، تشده أَيدٍ تعرف كيف تحكم قبضتها على الحبل الغليظ ، وكيف تمضي بسلمى في رحلة عذاب ما عرفها انسان في هذا العالم ..

واطلقت سلمى استغاثة حادة ، متضرعة وهي توشك ان تبلغ حافة الدرج الذي يفضي الى الحديقة وما لبثت ان احست براسها يتدحرج هناك .. وتمنت لو انه ينفصل عن جسدها وهي تتلقى عنف الضربات كمطرقة هائلة لا تستطيع اتقاءها وتمنت لو ان قوة ما تجعلها تغيب عن الدنيا ولو للحظات على الاقل ، عبر اجتياز آلام التدحرج القاسي على الدرج الذي لا يرحم .. تمنت لو يغمى عليها .. لو تفقد وعيها .. لو تموت .. وهي مستعدة بعدها لاستقبال الحياة كرة اخرى اذا ما اتيح لها فقط ان تبلغ الشارع لكي يرتاح رأسَها وجسدها على اسفلته الاملس ..

واخذ الدم ينبجس في رأسِها هنا وهناك ، بينما الكدمات الزرق تبرز ، بين لحظة واخرى، لكي ما تلبث ان تنتشر على ذراعيها وقدميها ..

اجتازوا الباب الخارجي في لحظات كالدهر .. وها هي تستقبل ما تتمناه بعد اذ تلقت اخر مطرقة عند حافة الرصيف : اسفلت شارع الغزلاني الاسود ذا اللمسات الناعمة ، الحنونة فما هي الا لحظات حتى دثرها الاغماء بذراعيه الحانيتين فانقذها مما هو اشد هولا : الرداء الذي اخذ يتمزق شيئا فشيئا وهو يكافح مس الارض فتنسل خيوطه واحدا اثر الاخر ..

وصاح يونس :

– رفاق .. اعطوا الحبل لغيركم ، فقد بذلتم من الجهد ما فيه الكفاية ..

وسرعان ما تبرع حشد من المتظاهرين كل يريد ان ينال شرف الامساك بطرف من الحبل ، وتساءل احدهم :

- الى اين ؟

اجاب يونس وهو يشير بيده شمالا :

- من هنا ، عبر شوارع البلد الرئيسية ، لكي نلقن اعداء الثورة درسا قاسيا .. دعوا اكبر عدد من الناس يرون باعينهم نهاية المتامرين السوداء ..

تفجرت الصرخات مرة اخرى :

- هذا مصير الخونة.

نادى بعضهم ، فرد اخرون وهم يتقافزن ويرقصون على طرفي الجسد المسحول الذي ينبجس منه الدم وتتكاثر الكدمات.

- " ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة ".

وبين لحظة واخرى كانت الحبال تتلوى في الفضاء ، والطلقات تئز مكتومة ، لكي ما تلبث ان تغيب تاركة ذيولا من الدخان الابيض الممتزج برائحة البارود.

كان يونس يغذ خطاه بموازاة سلمى ، ثم ما يلبث ان يهرع لكي يكون في المقدمة .. وما هي الا دقائق حتى يتراجع لكي يوازي الجسد مرة اخرى ..

وكانت حشود الناس تتكاثر لكي تعاين المشهد المتفرد .. وبالمقابل فان العديد ممن اطلوا عبر جدار المتظاهرين ، ورأوا الجثة التي اخذت تعاني من التمزق .. احسوا بصدمة قاسية، ولم يقدروا على مواصلة الرؤية ، فآثروا الانسحاب ، وابتعدوا عن المشهد القاسي الذي لم تألفه عيونهم البتة.

وعند دورة باب الجديد ، حيث كان عاصم قد وقف قبل يومين فحسب ينظر الى التظاهرة الحاشدة دون ان يبيح لنفسه المشاركة فيها .. نظر يونس فرأى جسد سلمى يختلج ويخفق مرتين ثم ما يلبث ان يستسلم للسكون ..

ها هي ذي تموت .. قال في نفسه وهو يدفع بسبابته قطرات العرق على جبهته الضيقة، ثم يرشها على جسد سلمى هذه المرة .. ونادى :

- عودوا بها ايها الرفاق عبر شارع الغزلاني نفسه ، فهذا يكفي ..

انعطفت التظاهرة حول دورة باب الجديد ، وما لبثت ان استأنفت طريق العودة ، واحس عدد غير قليل من المتظاهرين بالاعياء فاثروا الانسحاب ، بينما واصل الاخرون انسيابهم على الشارع ، صامتين هذه المرة ، حيث لم تتبق لهم اية قدرة على مواصلة الصراخ.

كانت الشمس قد اوشكت أن تغيب ، والظلال السوداء تمد اجنحتها المثقلة بالاكتئاب على الاماكن والناس والاشياء .. وكان شارع الغزلاني العتيق اسرعها في تلقي هذه الظلال واحتضانها.

وكانت بعض النسوة على طول الطريق يحاولن ان يلقين نظرة على ما يشهده الشارع من نوافذ دورهن وابوابهن ، ولكنهن ما ان يعرفن ، حتى يؤثرن الانسحاب ، ويقفلن النوافذ والابواب ، وعيونهن تسح بالدموع ..

لم تنته المهمة بعد .. قال يونس في نفسه .. ولا يزال المشهد ناقصا ، ولسوف اعرف كيف أُتِمَهُ ..

تقدم منه احد الرفاق وسأَله :

الا يكفي هذا يا يونس ؟ لقد نال منا التعب ، وها ان النهار اوشك ان ينقضي ..

اجاب يونس وهو يحدق جنوبا في مكان ما بجوار المعسكر الذي تجرع فيه الخوف والامتهان يومين بلياليهما :

- دقائق وسوف تعرفون ..
- ولكن الظلام اوشك ان يطبق ..
- قليلا من الصبر وترجعون الى دوركم ..

كانت المسيرة المرهقة قد حاذت دار عبد الرحمن الشيخ داود مرة اخرى ، وكان يبدو الان مثقلا بالحزن والاكتئاب والوحشة ، حيث لا يزال جسد عبد الرحمن ملقى هناك. وغذ يونس خطاه مسرعا ، لكي يجتاز المسيرة ثم يتقدمها ، منفصلا عنها بعض الشيء ، وما لبث ان وقف عند احد اعمدة الكهرباء الممتدة على الرصيف بمحاذاة الشارع ، تفصل احدهما عن الاخر عدة امتار ..

حدق فيه جيدا ، ثم ما لبث ان اشاح بوجهه صوب المعسكر القريب الذي تمتد ثكناته على يمين الشارع وصاح في موجة حماس مفاجيء :

- هنا ايها الرفاق ..

نظر بعضهم الى بعض دون ان يفقهوا شيئا ..

وعاد يونس لكي يقول وهو يضرب على العمود الحديدي بيده المعروقة :

- هنا سنعلق الجسد .. انه مكان مناسب ، اليس كذلك ؟

وصرخ وهو يتلقّى موجة حماس اخرى :

- لنتعاون جميعا ..

وامتدت الايدي لكي تجر جسد سلمى الممزق الى حافة الرصيف ، وتبذل جهدا صعبا في محاولة رفعه ليكون بموازاة العمود ..

- ليس هذا ضروريا ايها الرفيق !

قال احدهم وهو يترك المهمة متراجعا الى الوراء ..

- بل ضروري بكل تاكيد .. هيا ..

وتقدم بنفسه لكي يعينهم على المهمة .. وما ان اصبحت سلمى بموازاة العمود حتى صاح يونس مرة اخرى :

– لنرفعها قليلا ايها الرفاق .. لنعلقها .. قليلا من المشقة وسوف ينتهي كل شيء !

عادوا لكي يواصلوا المهمة .. وما هي الا دقائق حتى كان جسد سلمى يتدلى من مكان ما عند منتصف العمود ، مشدودا بالحبل نفسه الذي رحل بها عبر شارع الغزلاني المتعرج الطويل ..

واحس يونس بارتياح عميق يغمره وهو يتراجع خطوات لكي يعاين الجسد للمرة الاخيرة ..

فها هنا .. قريبا من المعسكر ، حيث اعتقل وعانى من الخوف والمذلة ، ها هنا على ناصية الشارع المفضي الى بغداد حيث يتألق مجد الزعيم .. ها هنا على بعد عشرات الامتار من البيت الذي كان عاصم يغازلها فيه .. من تل الذهب الذي كانت تتعاشق – يوما – مع زهوره وخضرته ودغله البري .. ها هنا يدرك يونس كم أنه احسن صنعا في اختيار عمود كهربائي مهجور ، ومغطى بالصدأ لكي يشنق عليه جسد سلمى .. فيطفيء واحدة من جمرات الحقد التي كانت تاكل قلبه منذ زمن بعيد !

❁❁❁❁❁❁

– ٢٤ –

مد حنا جرجيس نظره عبر نافذة غرفته العليا المطلة على شارع نينوى .. كانت الشمس تنغرز لحظت ائذ ، في مكان ما ، ينكشف بوضوح عند النهاية الغربية للشارع .. وما هي لحظات حتى غابت تماما .. ولكن شعاعها كان يكافح على مساحة واسعة من الشفق ، فيصبغ الحدود الدنيا للسماء بالدم والارجوان ..

ورغم كل شيء كان حنا يحس بقبضة عاتية تعتصر قلبه ، وكان الاكتئاب يصفعه بغير ما رحمة ، وكان يعزي نفسه : لقد انتصرنا وهذا كل ما كنت اتمناه ..

واجفل قليلا وهو يتذكر .. ها قد حان الوقت يا حنا لكي تهرع الى الشارع فتشارك رفاقك في تعزيز كيان الجمهورية والدفاع عن الزعيم بمواجهة بقايا الجيوب المتامرة التي لا تزال تقاوم اذ ها هي زخات الرصاص تسمع بين الحين والحين .. وما لبث الاجفال ان تحول الى رعدة نشرت في جسده قشعريرة كقشعريرة الحمى الباردة ، وهو يتذكر هاشم عبد السلام ، لقد ان الاوان يا هاشم ، لكنه ما لبث ان انكمش قليلا وهو يتذكر انه هَمَّ اكثر من مرة بمغادرة الدار ، بعد ان اطمأن على اهله واطفاله و ارتاح ، وتناول شيئا من الطعام لكي ينزل الى الشارع ويكون

على مقربة من الجماهير التي تصنع التاريخ ، اذ ما الفرق بينه وبينهم ؟! ان يونس يتوحد الان اكثر منه ، فيحقق على ارضية الموصل نفسها ما كان يحلم به ، ومن يدري ؟ فلعله يقود تظاهرة ما يلاحق بها جيوب المتامرين .. لماذا لا يتوحد هو الاخر ؟

ان رفاقه كانوا يرمونه بالجبن والانعزالية ، وكان بعضهم يتجاوز هذه التهمة الى ما هو امر وانكى... انه يكتب شيئا لا يفعله ولا يمارسه !

ونهض قائما وملامح الغضب تغطي وجهه ، وهو يدمدم :

– لسوف تعرفون قريبا كيف امارس كلماتي ، وكيف اعيش في احرفها .. سوف اجعلها تتجسد على اسفلت الشارع كما تجسدت كلمة الله !

وكأنه تذكر شيئا غاب عن ذهنه طويلا ، فعاد لكي يتساءل : الله ؟ ! أَتُراك لا تزال متشبثا به ؟! وما لبث ان اجاب وهو يحس باقتناع مطمئن يتجاوز حدود مملكة العقل .. ولم لا؟ ساكافح من اجل الاحتفاظ بالكلمة ، والايمان به .. سادافع عنهما .. ولن يكون ذلك تناقضا بحال من الاحوال مع انتمائي الجديد .. انهم على اية حال لا يحاربون الله ... او الكلمة .. او الايمان .. ولكنهم يلاحقون اولئك الذين يجعلون الدين اداة لتحقيق اهدافهم السياسية ..

وقال مخاطبا نفسه : اليوم ، وبكل تاكيد ، تستطيع ان تجعل كفاحك يتوحد ، فازاء الخطر التاريخي الذي يجثم على الانفاس عبر دهور يصعب حسابها ، يمكن ان يصير المرء نصرانيا او شيوعيا في الوقت نفسه .. لقد آن الاوان ..

وسمع زوجته تناديه من الطابق الارضي ، فانفصل عن النافذة وهو يطمئن نفسه : اذا فاتتك الفرصة فان غدا ليس ببعيد ، ولسوف تعرف كيف تجعل احلامك تتخلق وتصير وقائع وشخوصا واحداثا ..

– ها انا ذا قادم ..

واجتاز الدرج لكي ما يلبث ان يدلف الى غرفة الجلوس التي تنخفض بدرجتين عن مستوى الفناء .. استلقى هناك على اريكة ذات مخمل ازرق وهو يتمطى :

– آه .. لشد ما عذبني الحنين لجلساتنا البيتية هذه وانا اعاني الوحشة هناك ..

قاطعته زوجته :

– ما كنا نصدق انك ستعود ..

– وانا كذلك ما صدقت للحظة !

سألته :

– ولكن كيف تفسر ذلك ؟

اجاب وهو يتمدد على الاريكة :

- انهم لا يعرفون الرحمة على أية حال ، فليس ثمة ما يفسر تصرفهم سوى خشيتهم من غضب الزعيم .. من رد فعله ..

لم تقتنع زوجته لكنها تظاهرت بتصديقه .

وواصل حنا :

- على اية حال فانهم لم ينجوا من الغضب ، وسوف يعرف الناس غدا ان التامر لا يمكن ان يمضي بسلام ..

وقالت زوجته وهي تتوغل في الغرفة اكثر لكي ما تلبث ان تجلس على حافة اريكة مجاورة :

- لم استطع ان آكل لقمة واحدة .. تخيلتك هناك وانت تعزف عن الطعام ، انني اعرفك جيدا..
- ولكنني اضطررت اخيرا الى ان آكل !
- هكذا ؟!
- الضرورات تبيح المحظورات ..
- لقد اعددت لك اليوم وجبتك المفضلة ..

تساءل حنا وهو يزدرد ريقه :

- حامض الكبة ؟
- طبعا ، ولكنني لن اجازف بتقديمها قبل أن اتاكد من انك غدوت جائعا بما فيه الكفاية ..
- ولكن لم يمضِ على غدائي سوى اقل من ساعتين ..
- عندما تشم رائحتها ، وترى القرع الجبلي ، والشلغم ، يتشربان السماق فان شهيتك ستستيقظ ثانية ..

قال حنا وهو يعتدل :

- بكل تاكيد ، ولكني احس بجوع اشد الى النوم .. ليلتان كاملتان وانا لا اعرف له طعما ..

نهضت الزوجة وهي تقول :

- ستنام يا حنا .. وستشبع نوما !

غادرت الغرفة بينما كان هو منهمكا في مسح عدستي نظارته بطرف بيجامته المقلمة بالازرق والاحمر ، وعاد لكي يثبتها من جديد على أرنبة انفه المقوس.

كان يعذبه احساس مرهف بان الوقت ربما يكون قد فاته ، وان رفاقه قد فعلوا الكثير بينما هو مرتاح في بيته .. وانه لم يحسن صنعا في عدم الاستجابة لفكرة يونس عتاله بالانطلاق على رأس المتظاهرين لملاحقة الاعداء ..

ماذا تراهم فعلوا عبر الساعتين الاخيرتين ، وانت قاعد هنا تحكي مع زوجتك عن النوم والطعام والاطفال ؟

تناهت الى سمعه زخات من الرصاص قادمة من اكثر من مكان من الموصل .. ومرق الى الغرفة ، خائفا ، ابنه الاصغر سمير .. اخر العنقود كما كان يسميه ، لم يكن قد تجاوز الرابعة من عمره .. اطلق صرخة صبيانية ، وهرع قافزا لكي يستقر على ركبة ابيه..

ربت هذا على خديه الممتلئين ، وراح يدعكهما بحنان ،وهو يقول في نفسه : ماذا لو لم اعد اليه ، وحاول ان يطرد الخاطرالحزين ، لكنه الح عليه ، فوجد نفسه ينساق ثانية الى تيار الرثاء الذي كان يلجأ اليه بين الحين والحين .. فماذا لوقتلت هناك وظل سمير ينادي عليك، وما ثم من يربت على خديه ويدعكهما ؟!

انزلق الصبي على الارض ، وركض صوب الباب وهو يحس بفرح غامر كمن عثر على شيء ما افتقده طويلا ، وها هو ذا يجده وجها لوجه ويطمئن عليه ..

وما لبثت رشقة من الرصاص ، اخترقت الهواء في مكان قريب أن ردته ثانية الى اللحظة التي تعذبه .. ها هي ذي إذن .. ولن يعدو الامر احدى اثنتين : خونة يواصلون تآمرهم ورغبتهم في القتل ، او رفاق يمشطون ازقة المدينة واحياءها من جيوب المتامرين .. وصفعه الاحساس بالذنب مرة اخرى ، وانت هنا قاعد في بيتك تنتظر وجبة عشاء لذيذ ونوما عميقا ..

سيعرف بعضهم بالتاكيد .. يونس سيعرف ، ومن يدري فقد يسخر مني في مقهى المكاوي .. انه على جهله وغبائه يفعل ، وانت على علمك وذكائك تختبيء قريبا من زوجتك! وحاول ان يعزّي نفسه مرة اخرى : ساعرف غدا كيف سيكون التعويض ، وسوف يراني الرفاق بكل تاكيد .. ولكن ..

وانتصب امامه سؤال ما لم يكن مجرد حالة استفزاز ذهني تبحث عن جواب مقنع لكي تعود الى توازنها .. ولكنه انقض عليه ، من الخارج ، هذه المرة منفصلا عن ذهنه بالكلية ، ومتحولا شيئا بعد شيء من هيوليته وشبحيته الى حالة متجسدة راحت تزداد تماسكا وتكاثفا حتى غدت منظورا ذا طول وعرض وعمق وارتفاع ، تقف قبالته تماما وتتحداه ..

هل تستطيع ان تقتل ؟ ومن سيكون القتيل ؟

قال وهو يرتجف ويحس بان نور المصباح قد اخذ يضعف ويتضاءل حتى يبلغ درجة الصفر ، فيسود الغرفة ظلام دامس ..

- سوف اقتل بكل تاكيد ..
- اواثق انت من ذلك ؟

اجاب وهو لا يزال يرتعد :

- ليس يونس باقدر مني ..
- هكذا ؟!
- لقد آن الآوان لكي تتحقق كلماتي ..

- ولكنك لم تفعل شيئا ، ورفاقك يطاردون المتامرين ويقتلونهم ..
- سافعل .. سافعل ..
- ولكنك لم تجب على السؤال ..

صفعته رعدة اخرى.

- اي سؤال ؟
- من سيكون القتيل ؟

وتذكر حنا ، وصرخ ، كمن يعثر فجأة على جواب مقنع للسؤال المحير :

- ليس غيره ، بكل تاكيد .. لقد كتب علينا ان نتقابل .. وان يتحدى احدنا الاخر لقد استفزني بما فيه الكفاية ، وفد آن الاوان ..
- ولكن المسألة ليست شخصية على اية حال .. اجاب متشبثا بموقفه.
- بكل تاكيد ، فهو لم يتحدني وحدي ، ولكنه تحدى الجمهورية ، والزعيم ، والثورة ، ولم يدع فرصة تفلت دون ان يصب لعناته على الرفاق .. لقد كان يستغل كونه اماما اسوأ استغلال .. و ..

فرك عينيه جيدا وهو ينظر قبالته فلا يجد اي شيء .. وحدق في جنبات الغرفة فوجدها ملأى بالضوء ، رفع عينيه الى اعلى فوجد المصباح مشعلا بالقوة نفسها التي كان عليها ..

كان يحس باعياء شديد ، وخشي ان يقع فريسة لهوس الحمى ، ولكنه شجع نفسه قائلا: ساخرج غدا حتى لو لم تقوَ قدماي على المسير .. لا بد من ان امسك بالفرصة قبل ان تضيع منِّي الى الابد ..

ومن اجل ان يهرب من وساوسه نهض قائما ، واجتاز الغرفة المفروشة بسجاد انيق ، واطل على الفناء مناديا زوجته :

- اعتقد ان الوقت قد حان لتناول الطعام !

❁❁❁❁❁❁

- ٢٥ -

انطلق حنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وهو يغذ خطاه مجتازا شارع نينوى باتجاه طرفه الشرقي ..

كان يسال كل من يمر به :

- ألم تقع عينك على تظاهرة ؟ على تجّمع ما يسعى لملاحقة اعداء الجمهورية وتضييق الخناق عليهم ؟

وكان أكثر من واحد يجيبه :

- بكل تاكيد ، هناك في شارع النبي جرجيس ، او في شارع الفاروق .. يمكنك اللحاق بهم ..

ويعود حنا لكي يسال بلهفة :

- ماذا يفعلون ؟

ويجيبه اكثر من واحد :

- يلاحقون الخونة فيقتلونهم او يسحلونهم

- يسحلونهم ؟

- يبدو انك لم ترَ شيئا بعد !

وما يلبث ان يستجمع شجاعته ، اويستفزها بعبارة اخرى ، ويسأَل وهو يزدرد ريقه :

- وهاشم عبد السلام ؟

- من ؟

- هاشم عبد السلام !

اجاب احدهم بانه قتل يوم امس ، ولكن اكثر من واحد اكدوا انه لم يقتل بعد ، وانه سيقدم للمحاكمة هذا اليوم كي ينال جزاءه ..

- ولكن هل القي القبض عليه ؟

صرخ احدهم :

- وهل يقدر أحد اليوم على الافلات من قبضة الرفاق ؟

- لكنه لم يقتل ، اليس كذلك ؟

واحس بشيء من الارتياح ، وقال في نفسه : اذن فالفرصة لا تزال قائمة ، وساعرف كيف انفذ فيه حكم الاعدام .. لقد استفزني بما فيه الكفاية ، ولن تشفع له عندي جلساتنا في مطبعة الانوار ..

وعاد لكي يجتاز الشارع الطويل وهو يتقافز بجسمه النحيل وخطواته الواسعة هنا وهناك، وما ان يجد نفسه قبالة حشد من الناس حتى يراها فرصة طيبة للتاكد من ان خصمه قد القي القبض عليه ، وانه – في الوقت نفسه – لا يزال على قيد الحياة ..

وماذا يهم ؟ قال في نفسه وهو ينعطف يمينا في شارع الثورة المتفرّع عن نينوى .. اذا صدق ما قاله احدهم من انه قتل فعلا فهناك عشرات غيره يمكن ان تنال شرف انزال العقوبة بهم .. لكنه وجد نفسه دونما ارادة منه ، يعض على شفته السفلى .. ولكنه شيء اخر تماما ، بالنسبة لي على الاقل ، وقتله على يدي يعني شيئا كثيرا .. ان ثمة اصوات كبيرة يصعب حصرها

تناديني من الاعماق ، ولن تسكت بالتاكيد ان لم احقق ما تريده ، وانا اعرف جيدا ما تريده ، وعندها ستسكت الاصوات وسارتاح .. نعم .. سارتاح .. ولن يكون بمقدور يونس نفسه ان يقول شيئا ..

وشهد عدداً من الناس يهرعون ، قادمين من الازقة الفرعية والحارات صوب مركز الشرطة العام الذي يقبع في النهاية الجنوبية لشارع الثورة ، ويطل عليه بابنيته العتيقة المصبوغة بالابيض والاخضر.

كان يعرف جيدا ما يعنيه ذلك .. انهم متجهون صوب محكمة الرفاق التي يرأسها عبدالله الجزار ، مسؤول التنظيم الشيوعي ، والتي بدأَت بعقد جلساتها هناك ، لقد تأَكد لديه ذلك مما كان يسمعه من المارة .. كما تاكد لديه ان مجموعة من المتآمرين تقف هناك بانتظار مصيرها ..

– الا يجوز ان يكون هاشم عبد السلام بينهم ؟

سأل جنديا يمرق قريبا منه ، وهو يلوح ببندقيته ، فلم يرد عليه وقال حنا مطمئنا نفسه : لا بد ان يكون هناك والا فاين يكون !؟

ورغم انه كان يشهد بأُمِ عينه جماعات من الناس تتدفق من هنا وهناك صوب مركز الشرطة ، فانه احس ان المدينة تعاني فراغا مخيفا ، وان كل هؤلاء الذين يتخبطون في شوارعها ليسوا من اهلها ، وان اهلها الحقيقيين مختفون عن الانظار .. غابوا في اماكن اخرى .. انه يعرف شارع الثورة القصير جدا ، ففي احدى أَزِقته تقبع مطبعة الانوار التي كان يلتقي فيها بعدد من مثقفي المدينة ، وقريبا منها يمتد شارع النجفي الضيق الذي تطل عليه من الجانبين المكتبات الصغيرة المتراصة التي كان يجد متعته البالغة وهو يقف دقائق عند بواباتها يشتري كتابا او يكتفي بتصفحه بعد اذ يلمح سعره العالي على جانب من الغلاف .. انه يعرف شارع الثورة جيدا .. كان ملآن بالناس ، حيويا ، سعيدا ..

أما الان .. فانه يبدو ، رغم دفقات الناس التي تجتاحه ، خاويا ، مهموما ، حزينا .. اين اهل المدينة الذين احبهم الشارع واحبوه ؟ اين ذهبوا ؟ وهو يجتاز الرصيف الذي تطل عليه فوهة زقاق المطبعة ، تذكر هاشم مرة اخرى ، وقال في نفسه : ها هنا تحداني ، وهو لا يدري انني قادر على الاستجابة .. اكثر منه بكثير .. ولسوف يعرف قريبا ..

عبر الشارع عند دورة باب البريد القريبة من مركز الشرطة .. ها هو ذا اذن المركز العتيق الذي كانت التظاهرات تنتهي عنده ايام الملك .. لكي تعرب عن سخطها وغضبها ضد الشرطة حماة الملكية .. الان يتحول الى محكمة يمارس فيها الشعب حقه في مجابهة خصوم الثورة وانزال القصاص بهم ..

وخفق قلبه وهو يتذكر انه لم يعد يفصله عن هدفه سوى حيز ضيق في الزمان والمكان .. وانه سيمارس حقه هو الاخر قبالة واحد من هؤلاء ، ولكن وزنه لن يكون كوزنهم .. واحس بشيء من الفخر وهو يتصور نفسه ينقض على فريسته لكي يسوقها الى حتفها وسط هتاف الجماهير وتصفيقها .. ومن يدري فلعلَّهُ يقود بعدها تظاهرة كبيرة كتلك التي كان يونس يتهيأ لقيادتها مساء امس وينطلق بها في شوارع المدينة ، عندها سيقول كل ما يعتمل في نفسه ، وسوف تزداد ثقته بما يقول ، لانه عرف كيف يمارس الفعل ، والتحقق على ارضية الواقع المشهود ..

ها هو ذا اذن المركز العتيق ، ورفع نظره قليلا ، الطابقان اللذان يطلان على الشارع بلونهما الابدي ، الابيض والاخضر .. الرواق الامامي الضيق الذ يفصله عن الرصيف سياج حديدي ذو رؤوس مدببة .. الباب الوسطي الكبير وغرفتا الحراسة الجانبيتان ، الباحة الداخلية وابواب الغرف العتيقة التي تنفتح عليها .. ثم الباب الخلفي المفضي الى الساحة المكشوفة التي تمتد على مدى البصر ، يحيط بها سور حجري متآكل لا يكاد يقدر على تحصينها ..

ووجد حشدا من المتجمهرين يقف متدافعا على الرصيف .. وكان بعضم يسعى للاقتراب اكثر من السياج الذي يمتد بموازاة الرواق الارضي الضيق .. واذ استطاع عدد منهم اجتياز الباب الحديدي المشرع الى داخل الرواق ، اكتفى البعض الاخر بان يقف ممسكا بالسياج نفسه ، مادا عنقه باتجاه غرفة الحراسة اليمنى ..

وسمع بعضهم يتهامس :

– هنا في هذه الغرفة تنعقد المحكمة ..

ووجد نفسه يصرخ دون ارادة منه :

– اين هاشم عبد السلام ؟

التفتت اليه عشرات الوجوه المتشبثة بالسياج ، وكأنه اخرجها بصرخته عن استغراقها في نقطة ما في الرواق بين مدخل السياج وباب الغرفة اليمنى ..

واحس بشيء من الخجل الممتزج بالخوف ، وطغى عليه شعور قاس بانه غدا مكشوفا تماما قبالتهم ، فاراد ان يغطي نفسه ، ولم يجد بُداً من ان يصرخ مرة اخرى :

– اريد ان اصفي حسابي معه !

ومد يده بعصبية الى الجيب الخلفي لبنطاله ، واخرج مسدسا عتيقا ولوح به بيد مرتجفة وهو يصرخ :

– لن يفلت مني على اية حال ..

كانت الوجوه الغريبة التي لا يعرف احداً منها على الاطلاق ، تجد نفسها واقعة في اسار استغراق جديد .. لعله الاعياء .. لعله القرف ، لعله الشبع من الدم الى حد التخمة ، ما

جعلهم يقفون هناك كالمشدوهين عند السياج .. يتحركون ببطء .. ويديرون وجوههم ببطء .. وينظرون الى الاخرين ببطء .. لكنه البطء الذي يخيف ، ويستفز ، ويدفع الانسان رغما عنه الى اتخاذ ردود افعال قد لاتكون مبررة على الاطلاق ..

ووجد نفسه في وضع صعب اشبه بالكابوس .. ان احدا لا يرد عليه .. بل – ربما – ان احدا لم يسمعه ابدا .. اذن اين ذهبت صرخاته ؟ اتراه صرخ اساسا ؟

ومن اجل ان يتجاوز الوضع الصعب .. من اجل ان يتاكد انه يتحرك في الواقع ، وانه ليس اسير حلم عبثي ، او كابوس مخيف ، استجمع كل ما لديه من شجاعة ، وفرش ذراعيه لكي يدفع بهما حشود الناس الملتصقة بالسياج والمتكومة عند المدخل ، دون ان ينسى لحظة ان يشد اكثر على مسدسه كيلا يفلت منه وكي يجعله اقدر على التأثير وجذب الانتباه ..

وبصعوبة بالغة اجتاز المدخل .. ليس سوى دقيقة أو جزء من دقيقة ، ولكنه بالنسبة اليه على الاقل كان زمنا لا نهائيا .. وللحظات حدثته نفسه بالتراجع والهروب .. وحلم .. بانه يبعد عن هذه الكوم البشرية اللزجة .. ويبعد .. وبأَنَه يعود ادراجه عبر شارع الثورة ، لكي ينطلق بعدها ، حرا صوب بيته متخففا من النظرات الفارغة التي لم تكن تعني شيئا على الاطلاق ..

آه لو كنت في بيتي الان !! ولكنه افاق على شيء من الالم ينغرز في جنبه واضلاعه .. انه ضغط هذه الكوم المتراصة .. قال في نفسه ، واستفز شجاعته مرة اخرى :

– افسحوا لي الطريق ..

صرخ بصوت مبحوح

– فاني مكلف بمهمة ..

تراجع بعضهم قليلا ، وانفتح امامه على مدى متر او مترين شريط ضيق يتلوى قريبا من باب الغرفة اليمنى .. ولاول مرة بدأَت الاصوات تطرق سمعه من الداخل ، لكنه لم يستطع ان يتبينها رغم الجهد البالغ الذي كان يبذله لالتقاطها وفك رموزها .. ثمة صوت واحد فقط خمن – لدهشته – ان يكون ليونس سعيد ! وقال في نفسه كالمأخوذ : اذن فانت هنا ؟!

وهو يكافح لكي يعرف ما يجري هناك فوجيء بثلاث رصاصات تنطلق من مكان ما في الغرفة ، تخترق الهواء بحدة قاسية ، ثم تصمت منغرزة في شيء لين .. جسد آدمي على الاغلب ..

ووجد نفسه يقف للحظات في نقطة التمزق ، بين التوغل اكثر صوب الغرفة ، وبين التراجع والفرار .. وهو يتمزق بعنف نسي مهمته .. تلاشى بالكلية الهدف الذي تمركز في ذهنه عبر اليومين الاخيرين ، وتحول بمرور الوقت الى تجسد منظور يضغط على راسه واعصابه .. وقد جاء الى هنا لكي يتخلص من الثقل ، من الالحاح المعذب ، واذ اصبح على بعد خطوات

نسي كل شيء .. اتراه لم يسمع من قبل رصاصا ينطلق لكي يستقر في الاجساد مغيّباً في طيات اللحم الحار ، متدثرا بحرارة الانفاس الاخيرة المتشبثة بالحياة ، مكتوما في تلافيف الروح التي استفزت فتحفزت لاحتواء المعدن القاسي الذي يضرب الانسان بلا رحمة ؟

لم تكن سوى لحظات وجد نفسه يصيح عند حافتها الزمنية : آه .. انه هاشم عبد السلام بعينه ، يتهاوى قبالته تماما عند عتبة الباب .. تسقط عمامته البيضاء الناصعة اولا .. ثم يسقط هو بعدها يشخب دما ..

وصاح حنا مرة اخرى وهو يعاني من عذاب يصعب وصفه : آه .. لقد فاتتني الفرصة، ولكن بعد ان اصبحت على بعد خطوة واحدة فحسب من الهدف فلماذا يا الهي ؟ !

وانحنى قليلا ، والمسدس العتيق يرتجف بيده اليمنى .. لا .. انه هاشم بكل تاكيد .. لكن اما كان عليهم ان ينتظروا قليلا لكي يمنحوني الفرصة ويدعوني ارتاح ؟

كان هاشم قد هوى على صدره ، وامتدت يده لكي تمسك بالعمامة ، ولكنها ما لبثت ان تراخت .. بعدها ، راه حنا جيدا وهو يختلج ، ويكافح لكي ينقلب على ظهره ، وقد تمكن – اخيرا – من تحقيق امنيته .. فارتاح ..

انكب حنا اكثر لكي يعاين وجهه ، كانت اثنتان من الرصاصات الثلاث قد حفرتا في جبهته ثغرتين ، وكان الدم لا يزال يتدفق منهما نقيا ، حارا ، قانيا .. ويجتاز جانبا من الوجه والذقن لكي يستقر على اللحية السوداء القصيرة ، ومن هناك كان يعانق الارض نقطة .. نقطة ..

وعجب حنا كيف يقدر رجل ميت على ان يبتسم .. وقال في نفسه مرة اخرى : انه هاشم بكل تاكيد ..

ركز نظره اكثر ، وهو يشعر انه يقف على حافة عالم لا يعرف عنه ايما شيء ، وقال في نفسه : ها هو ذا .. اخيرا .. ولكن لماذا تغمر الطمأنينة والرضا وجهه الذي يسيل دما ؟

زحف بنظره قليلا صوب الجسد .. رصاصة اخرى كانت قد استرقت بين القلب والضلوع .. وها هي ذي الثغرة التي احدثتها .. نافورة الدم التي تنبجس على دفعات ..

ومضى حنا يزحف بنظره على الجسد المستلقي امامه .. ها هي ذي اليد اليسرى تلم اصابعها ، وتطويها الى الداخل بعنف ، وكأنها تتهدّد ، كما كانت تفعل من قبل زمن الخطب الملتهبة نارا .. اما اليد اليمنى فقد لمَّت اصابعها هي الاخرى ولكن باسترخاء عجيب بينما انطلقت السبابة من اسر القبضة ، لكي ترتفع قليلا ، وبزاوية مائلة ، صوب السماء ..

وشعر حنا بان هاشم يتحداه مرة اخرى .. لا بأس .. قال في نفسه .. وبحركة عصبية ونظرات تقطر غيظا تقدم لكي يكون بجوار هاشم تماما .. ومن اجل ان يشرك الاخرين معه ، هؤلاء المتكوّمين الى جواره ، ينظرون فقط دون ان يقولوا شيئا .. من اجل ان يجعلهم يعرفون انه ليس شخصا عاديا مثل اي واحد منهم ، وانه لايقل عن اولئك الجالسين في الغرفة اليمنى ، اولئك الذين اصدروا قبل لحظات حكم الاعدام على غريمه ، ونفذوه بسرعة مدهشة .. من اجل ان يتبين لهم كم انه مهم ، وانه ماجاء لكي ينظر مثلهم فحسب .. طوح بقبضته في الهواء ، وصرخ وجسده يهتز ، محاولا ان يدفع بصوته الى ابعد نقطة يقدر على بلوغها :

- سحقا للخونة .. والمجد للزعيم !

ورآهم جيدا وهم يتحركون .. يتجاوزون سكونهم والتصاقهم بالارض ، وينتشرون ببطء هنا وهناك .. بل انه سمعهم جيدا وهم يرددون نداءه !!

اعترته موجة حماس لم يذق طعمها من قبل ، وصرخ مرة اخرى ، فرددوا صراخه بقوة اشد هذه المرة !

كان حينذاك يحس بنشوة عارمة اختلج لها جسده النحيل . وقال في نفسه وهو يرتجف: لست وحدك يايونس . سوف تخرج وسوف تراني .. وقال كذلك : لن تتحداني يا هاشم بعد اليوم، وسوف أُمَرِغ انفك بالتراب ..

رفع قدمه اليمنى قليلا ووضعها ببطء على وجه هاشم ، وراح يدعك بحذائه الاسود الملطخ بالوحل اللحية التي تقطر دما ..

وما لبث ان استدار لكي يقف وراء الجسد الملقى .. لعله كان يريد ان يمنح الجماهير المحيطة به فرصة اكبر لرؤيته بوضوح ..

كان حذاؤه الملطخ بالوحل لا يزال يدعك بعصبية لحية هاشم عبد السلام ..

❁❁❁❁❁❁

- انتهت -

الموصل : عماد الدين خلبل

اذار ١٩٨٤